الشباب العربي وطموحات الإصلاح

محاولة لتفهّم الجيل الجديد

كاظم الشبيب*

توضيح

هذه الصفحات عبارة عن محاولة لفهم وتفهُّم دور الشباب العربي والإسلامي في حراك الشارع، ومن ثم نحاول أن نجيب عن تساؤل مفاده: هل لهذا الحراك دور في إصلاح الأمة؟ وبالتالي هي أيضاً محاولة لفهم وتفهم الشباب وأوضاعهم وحاجاتهم ولغتهم ومشاكلهم. سأعمل، من خلال هذه المحاولة، الخروج قدر الإمكان عن نسق الكتابة التقليدية فيما يخص الشباب. أي سأتجاوز مناقشة الأدوار التقليدية والاجتماعية المتعلقة بالشباب مثل الأسرة وعلاقة الأبوين بالأبناء، وأهمية القدوة الحسنة للشباب، وضرورة ضبط ومتابعة من يصادقون، ومراقبة تصرفاتهم عن بعد... إلخ.

رغم أهمية هذه الموضوعات، إلا أني أعتقد بحاجتنا الماسة، اليوم وليس غداً، إلى الانطلاق نحو «الكتابة المفتوحة» حول الشباب، لأنهم يعيشون، ونحن جميعاً، في عالم مفتوح في أبعاده المختلفة ووسائله المتنوعة وآلياته المتوالدة، عالم مفتوح المسامات لتلقي الأضواء المغذية من كل حدب وصوب. وقد تحول الكتابة التقليدية دون فهم عوالم الشباب في عصرنا الحاضر.

«الكتابة المفتوحة» غير المتقيدة بضوابط البحث والدراسة العاديتين، لا تعني تجاوز طرق

* كاتب وباحث، السعودية.

الاستنتاج والاستقراء المنطقيتين، بل هي انطلاق حر للكتابة حول موضوع واحد ذي زوايا مبعثرة، في محاولة للملمة جوانبه كلملمة زوايا وجوانب لوحة زجاجية مهشمة؛ لأن مدخلات الموضوع خطوطها كثيرة، ومخرجاته خيوطها عديدة... أنطلق في ذلك على قاعدة حاجة الجميع للتفكير، ليس في كيفية صياغة شخصية الشاب والشابة، وإنما الأهم، في نظري، هو كيف يمكن إعادة صياغة أولويات اهتماماتهم، وتكرار التذكير بتلك الأولويات كلما دعت الحاجة لذلك بين حين وآخر.

«الكتابة المفتوحة» تعني السعي للتبسيط بلا إسفاف، وتناول الموضوع بنمط ضربات القلب، لا توقف يهلك الموضوع، ولا تسارع يتعبه ويرهقه فوق طاقته. فتارة بالكتابة عنه بنظرة شاملة من منظار علوي عام، وتارة أخرى بمنظار تفصيلي من الداخل. ومرة بالكتابة عنه من خلال التموضع في مكان الشباب أنفسهم، وأخرى من موقع المراقب والمحلل، ومرة أخيرة من موقع المستشرف للمراحل القادمة. هي كتابة غير مقيدة بزمن اللحظة القائمة، وغير منفلتة عنها. هي كتابة متحررة من الأحكام المسبقة حول الموضوع، لكنها لا تتجاوزها، تبقيها كإشارات المرور الصفراء لا تُوقفك ولا تُطلقك، بل تجعلك في حالة من الحذر والترقب.

«الكتابة المفتوحة» هي محاولة لخلق إضافة جديدة أكثر من كونها إعادة لتدوير الأفكار بطريقة روتينية كتدوير الزوايا في لعبة التذاكي المشهورة. فليعذرني القارئ إن أخفقت في هذه المحاولة، وليوجهني بملاحظاته حتى تتقوم وتكتمل محاولات تشخيص أوضاع الشباب في أوطاننا وأمتنا، وليقبلها مني إن كنت موفقاً.

حراك الشباب العربي

تساؤلات كثيرة برزت، مع ولادة ما بات يعرف بـ(ربيع الثورة العربية)، حول طبيعة وحجم ودور الشباب العربي فيها. تصب جميعها في مختبر واحد يبتغي محاولة قراءة وفهم، ليس أحداث الثورة هنا وهناك فقط، بل قراءة ما يصنعه شباب الأمة من تغيير، ومحاولة فهم منطلقات تفجر حالة الثورة عندهم وتفهم أفكارهم وسلوكهم وحقيقة مشاعرهم تجاه محيطهم ومجتمعاتهم، مع تحفظنا على إطلاق اسم (الثورة) على هذا الحراك الواسع.

فقد كسر شباب الأمة تلك الصورة النمطية التي سادت العالم العربي والإسلامي خلال العقود الماضية حتى لحظة استشهاد الشاب التونسي بوعزيزي. تؤكد تلك الصورة أن مجتمعات العالم العربي لم ولن تتفاعل مع موجات التغيير والإصلاح التي سرت في عروق الشعوب والدول مثلما حدث مع سقوط جدار برلين الفاصل بين الألمانيتين، وتتابعت بسقوط الاتحاد السوفيتي وتحوله إلى دول امتدت من دول أوربا الشرقية حتى أقصى شرق آسيا. والملاحظة المهمة أيضاً أن تلك الموجات كان أساسها الشريحة الشبابية.

كسر الحراك الشبابي في الأمة جدار الصمت الاجتماعي وحطَّم جدار الخوف السياسي فخرج من قمقمه معبراً، لا عن نفسه فقط، بل معبراً عن أجيال ذهبت لبارئها خلال العقود الماضية،

وعن أجيال حاضرة تحمل هموم السابقين، وعن أجيال قادمة تتلمس طريقها نحو المستقبل. وفي حقيقة الأمر فإن هذا الحراك يمثل حلقة مكملة لموجات التغيير التي هبَّت على العالم خلال تسعينات القرن المنصرم وتتابعت هباته خلال العقد الأخير حتى وصلت لعالمنا العربي أخيراً.

هذا الحراك الشبابي في العالم العربي والإسلامي إنما يعبر عن الإحباط العام تجاه الجمود السياسي وعدم التغيير والتطوير الاجتماعي. ويعبر كذلك عن انعدام الثقة في قدرة الأنظمة السائدة على تحقيق طموحات الشارع العربي. ويعبر عن رفض الشباب للركود التنموي في سائر الاتجاهات التنموية. ويعبر عن حالة اليأس من الحكومات القائمة في تلبية حاجات الناس اليومية والحياتية. ويعبر عن إيمان المجتمعات العربية بنفسها وإمكاناتها لصنع التغيير الذي يُطمئنها على حاضرها ومستقبل أبنائها.

الشباب هم شريحة من الشرائح الاجتماعية المتعددة. انطلقوا فتبعتهم الشرائح الأخرى. ساحات التظاهر من تونس إلى اليمن والبحرين مروراً بمصر وليبيا وسوريا اكتظت بكل الشرائح، لكن شريحة الشباب كانت هي الوقود الدائم للتجمع والتفعيل والتفاعل. وقد أبدع الشباب في تحريك الشوارع بالشعارات السلمية وبتنظيم أنفسهم وطرح أفكارهم، لاسيما في سلوكهم بين الطرد والجذب تجاه المبادرات السياسية، سواء تلك المبادرات القادمة من أجل إنقاذ الحكومات القائمة، أو تلك المبادرات التي تستهدف معالجة الأزمة في هذا البلد أو ذاك.

الشباب وطموحات الإصلاح

محاولات إصلاح الأمة لم تتوقف طوال تاريخها. ونعني هنا، الأمتين العربية والإسلامية. تخبو المحاولات وتبرز. تثور وتنام. تكمن وتظهر. قد تنبعث في مصر وتكمن في الشام. قد تخبو في اليمن وتبرز في العراق. وهكذا دواليك. لم تتوقف تلك المحاولات قط؛ لأن طموحات الإصلاح كانت دائماً حية في ضمائر المصلحين والمبادرين والمبدعين والمفكرين والسياسيين ومن حملوا هموم الشأن العام.

محاولات إصلاح الأمة تنوعت في صورها وأشكالها وأطرها ودرجاتها. الانقلابات العسكرية هي وجه من تلك الوجوه المريدة للإصلاح أو التغيير. حركة الإمام محمد عبده في مصر. حركة السيد جمال الدين الأفغاني. الأحزاب والحركات الإسلامية واليسارية. حركات التحرر في البلاد العربية والإسلامية. ثورات الاستقلال من الاستعمار. حتى التكتلات الإقليمية كدول عدم الانحياز ومحور بغداد أو غيرهما، جميعها ينشد الإصلاح والتغيير وإن اختلفنا أو اتفقنا معها في المبدأ أو الأسلوب. بالتالي فإن تعدد صور محاولات الإصلاح هو مؤشر على استمرار مساعي خط الإصلاح في الأمة وعدم توقفها.

جميع جوانب وزوايا الحراك المتنوع تصب في بوتقة محاولات التغيير والإصلاح، سواء اتخذ الحراك في نشاطه البعد الثقافي والفني كالمسرح والكتاب والإعلام، أو اتخذ في

نشاطه البعد الاجتماعي والإنساني كالجمعيات الخيرية والجمعيات المهنية والاتحادات النقابية المتخصصة، أو اتخذ الحراك في نشاطه البعد الديني والفكري كالخطابة والإرشاد والتوجيه وحملات الحج والفعاليات الرمضانية، أو اتخذ نشاطه في البعد السياسي كتشكيل الأحزاب الموالية والمعارضة للتطوير والتنمية والمساواة وإقامة العدالة ومحاربة الفساد.

لذا فإن تلك المحاولات الإصلاحية، بكل أشكالها وتنوعها وجوانبها، هي تعبر عن طموحات أصحابها وقناعاتهم في عملية الإصلاح وطرقها، وبالتالي فإن طموحات التغيير والإصلاح لم تتوقف، ولا نظنها تتوقف. في كل جيل، وفي كل مجتمع، هناك من يحمل راية التغيير والإصلاح، فيعبر عنها بمحاولة إصلاح هنا أو محاولة إصلاح هناك، إصلاح ثقافي أو إصلاح سياسي، إصلاح اقتصادي أو إصلاح ديني، إصلاح فكري أو إصلاح إداري، جميعها تعبر عن طموحات التغيير والإصلاح مهما تنوعت وتعددت.

من هنا فإن حراك الشباب العربي هو، من وجه أو آخر، امتداد لتلك المحاولات الإصلاحية في الأمة، ولكن بوجه جديد وطبيعة جديدة وديناميكية جديدة، بغض النظر عن هوية هذا الحراك ومبتغياته ومنطلقاته. ومن ثم فهو امتداد لطموحات الإصلاح في الأمة. لا يمكن تناول حراك الشباب العربي اليوم منفصلاً عن الحراكات السابقة، فشباب اليوم هم أبناء لجيل آباء اليوم، وهم أحفاد للأجيال السابقة، لا شك أنهم يحملون البذور الإيجابية والسلبية من آبائهم وأجدادهم، لكنهم عبروا عن طموحاتهم بما يسمى اليوم بـ«ربيع الثورات العربية» من المحيط إلى الخليج.

يحمل شباب اليوم راية الإصلاح لأنهم يرون ويلمسون، كبقية الشرائح الاجتماعية، ما يحيط بهم من تردٍّ في الأوضاع الاقتصادية كالفساد والتلاعب بثروات الأمة وارتفاع معدلات البطالة وضعف البنية التحتية للتنمية. وتردٍّ في الأوضاع السياسية كتشتت الأمة وتفرقها، وحاكمية الدكتاتوريات بالظلم والجور، وبقاء فلسطين تحت الاحتلال الإسرائيلي، وعودة الاستعمار في بلدان الأمة برداء جديد. وتردٍّ في الأوضاع الإنسانية كضعف الخدمات الطبية والتعليمية والسكنية. وغيرها منترديات اجتماعية وثقافية...كل ذلك دفعهم للبحث عن وسائل وأدوات تساعدهم على إصلاح ما أفسده الدهر في أمتهم.

حراك الشباب كعملية إصلاحية في الأمة يؤكد أحد أمرين: إما أن الأمة ملَّت الجمود في أوضاعها المختلفة فقررت كسر عجلة الروتين التي تعيشها بالبحث عن مسارات للتغيير، أو أن الأمة تعيش حالة من الفساد الذي يحتاج إلى معالجة بالضد عبر عملية جراحية للإصلاح. والأقرب، في قناعتنا، أن حراك الشباب يعبر عن الحالتين: رفض للجمود السائد في مناحي حياة الأمة في أوضاعها السياسية والاقتصادية الاجتماعية، وفي الوقت ذاته هو عملية قيصرية قاسية يُراد منها الإصلاح في الأمة.

اندفاع الشباب في حراكهم بهذا الحماس الذي فاق توقعات المحللين وتجاوز تنبؤات

الاستراتيجيين المستشرفين للمستقبل، قاد الأمة، في مصر على سبيل المثال، نحو ردة فعل تطالب بمحاكمة أقطاب النظام السابق، لأن الأمة تحملهم مسؤولية الفساد الذي طال بنتائجه كل أسرة على جميع المستويات الحياتية. من هنا، كما يعتقد شباب الثورة في مصر، يبدأ الإصلاح وينطلق قطار التغيير، لأن الاعتراف بالفساد ووجود المفسدين يقود للإصلاح المنشود.

هل ينجح حراك الشباب في إصلاح الأمة؟

السؤال كبير جدًّا، بل هو أكبر من أن يجيب عنه أحد ما. لكننا نجتهد بما نحيط به من علم ودراية من باب محاولة التحليل والتوقع، لا أكثر ولا أقل، لأن العوامل المؤثرة في كل حراك شبابي تختلف من بلد إلى آخر، ومن مجتمع إلى آخر. هناك العوامل الذاتية للحراك، والعوامل المحيطة بالحراك، والعوامل الخارجية. وسنحاول أن نوجز تلك العوامل كي لا نستغرق في الموضوع.

في البداية ينبغي التأكيد على العامل الرباني والغيبي للموضوع الذي لا يمكننا كإسلاميين تغافله، ففي أول آية من سورة البقرة حيث تتطرق لمواصفات المؤمنين، التي من أهمها الإيمان بالغيب، يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿الم (١) ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ (٢) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣) وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٤) أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[(١)]، فبالعلم السياسي والمنطقي والعلمي لا يمكن قبول ما حصل خلال الفترة الأخيرة والتسليم به بعيداً عن الجنبة الغيبة لله جلّ وعلا. فما كان قبل أشهر قليلة، بالتحليل المنطقي والسياسي والاجتماعي مستحيلاً، أمسى اليوم واقعاً. سقوط حاكم تونس زين العابدين بن علي في فترة وجيزة، سقوط حاكم مصر حسني مبارك، انقلاب الأوضاع في ليبيا واليمن وسوريا والبحرين... كل ذلك لم يكن متوقعاً حتى شهادة الشاب التونسي بو عزيزي. مطلب البحث في هذه النقطة، وما نريد التأكيد عليه هو وجود إرادة غيبية شاءت ومكنت وباركت للأمة حدوث ما حدث. وعليه تبقى التوقعات مفتوحة على جميع الاحتمالات الموضوعية وغير الموضوعية، لأن ﴿عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى﴾، فقد ينجح حراك الشباب في محاولة إصلاح الأمة، وهو ما يتمناه المؤمنون، وقد لا ينجح لا سمح الله، وهو ما يرجوه الحاكمون.

عوامل نجاح أو فشل الحراك

أما بالمنطق السياسي والعلمي والموضوعي فحراك الشباب معرض للنجاح والفشل وفق العوامل التالية:

أولاً: العوامل الذاتية لحراك الشباب: الشباب قوة محركة بديناميكية عالية

(١) سورة البقرة: ١- ٥.

للحراك، ولكنها قوة غير كافية بمفردها. فلولا تفاعل عامة الشارع المصري وبكل شرائحه الاجتماعية ما نجح حراك الشباب المصري في إسقاط وتغيير النظام. وكلما ضعف تفاعل الشارع مع حراك الشباب أو جبن، أو تشبث بالاستسلام للواقع القائم، ضعف عندها الأمل في الإصلاح والتغيير. والعكس يفضي لعكسه، فكلما زاد زخم الشارع بالتضامن مع حراك الشباب بالشجاعة والإقدام، زادت فرص الأمل في نجاح حراك الشباب.

من جهة أخرى، لتعدد الهويات الفكرية والاجتماعية والدينية أثر كبير في نجاح أو فشل الحراك الشبابي، بينما وحدة الهوية لتركيبة الاجتماع السياسي للبلد الواحد تميل بكفة الميزان لنجاح الحراك الشبابي كما حدث في مصر، أما البحرين واليمن فهما من النوع الأول المتعدد الهويات. ويُخشى على الحراك الشبابي في سوريا لتعدد هويات المجتمع السوري أن يقود الأمور نحو المسار الليبي، لأن المجتمع السوري يتضمن فسيفساء فكرية واجتماعية متنوعة دينيًّا ومتعددة قوميًّا، علويون وسنة وشيعة ومسيحيون ويهود وأكراد وتركمان وبدو...

من جهة ثالثة، هناك ورقة الجيش ودوره في إنجاح أو إفشال حراك الشباب، فعندما يقف الجيش، أو القوات المسلحة، على خط الحياد بين حراك الشباب والنظام تكون النتيجة أقرب للنجاح كما حصل في تونس. وعندما يقف الجيش على خط الحياد كمراقب للتدخل في اللحظات الحاسمة لصالح التغيير ينجح أيضاً حراك الشباب كما حصل في مصر. بينما التدخل المبكر لصالح النظام كما جرى ويجري في ليبيا والبحرين، وبنسبة ما في اليمن، فإن نجاح حراك الشباب معرض للتعطيل في المرحلة الأولى، وربما يتعرض للفشل أيضاً في المرحلة اللاحقة. هنا تبتان قدرة الشباب على تنظيم أنفسهم بخطوات سريعة على التواصل مع ضباط القوات المسلحة لتحييدها أو ضمان عدم تدخلها لصالح النظام أو عدم قمع الشارع. ويبتان أيضاً مستوى ارتباط هذه القوات بالناس ومدى استقلاليتها عن النظام.

من جهة رابعة، هناك النظام الحاكم وسيطرته وقوة تأثيره والمكونات الاجتماعية المتمصلحة من بقائه. هذا العنصر من العوامل الذاتية المؤثرة في حراك الشباب ويُشكل أحد المعايير لنجاح أو فشل حراكهم. هذا العنصر هو ما أفضى إلى الوضع القائم في ليبيا. معمر القذافي لم يتعامل بطريقة زين العابدين بن علي في تونس مقابل حراك الشباب والشارع، ولم ينتهج مسار حسني مبارك في مصر، بل لم يتشبث بالحكم على طريقة علي عبدالله صالح في اليمن، إنما قام بطريقته الخاصة بالاستعانة بجيشه وكل نظامه وحزبه وعشيرته وكذلك بجلب المرتزقة لمواجهة حراك الشباب المطالبين بالإصلاح والتغيير. فطبيعة النظام الحاكم ومستوى ردة فعله على حراك الشباب ومستوى قدرته على المناورة هي من المؤشرات المهمة لحسم جدل فشل أو نجاح حراك الشباب لإصلاح الأمة.

ثانياً: العوامل المحيطة لحراك الشباب: الشباب عندما ينزلون إلى الشارع ويطالبون بالتغيير والإصلاح، لا يعني ذلك غياباً للتكتلات الداخلية المحيطة بهم والمتغلغلة في المجتمع،

سواء التكتلات الدينية أو السياسية من الأحزاب الرسمية العلنية وغير الرسمية كالنخب السياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية والدينية. ناهيك عن وجود رجال أعمال في كل بلد يشكلون قوة اقتصادية مؤثرة في ميزان الأعمال ومسار الحياة التجارية، وتأثير هؤلاء على حراك الشباب بالنجاح أو الفشل يعتمد على تحولهم أو عدم تحولهم إلى تكتل سياسي فاعل يساومون من خلاله على تحديد مستقبل البلاد، أو على مدى قدرة الشباب على التعامل معهم واحتواء حركتهم في صالح التغيير الإصلاحي ومدى استجابتهم لذلك.

لكل هؤلاء -السياسيين والأحزاب ورجال الأعمال والنخب- تأثير في قطاعات اجتماعية واسعة سواء قبل سقوط النظام أو بعد سقوطه، وإن كانت نسبته مختلفة بين أنواع النخب وامتداداتها الاجتماعية، ناهيك عن بقايا النظام والتكتلات القريبة منه ومدى حظوتها في الشارع العام. في تونس اليوم خشية كبيرة عبر عنها المتابعون من الداخل والخارج على مستقبل التغيير الذي حدث بقيادة الشباب. تبقى الأسئلة قائمة وحائرة حول قابلية الثورة للسرقة أم لا حتى تتضح معالم الخريطة السياسية للتغيير. منشأ الحيرة هو غياب التوقع والتحليل حول قدرة كل طرف وغلبة أي من الأطراف الداخلية على جر التغيير نحو مسارات محددة في هذا الاتجاه أو ذاك. مع الأخذ بالاعتبار وجود امتدادات لهذه المكونات مع جماعاتها في الخارج. على ضوء ذلك يصبح نجاح الحراك الشبابي مرتبطاً بحجم الدور الذي تلعبه وستلعبه تلك التكتلات والنخب في التغييرات المطروحة والإصلاح المنشود.

ثالثاً: العوامل الخارجية لحراك الشباب: يتحرك الشباب بهمة عالية، لكنهم قد لا يحيطون بما يُدار حولهم من محاولات لاستثمار حراكهم من قبل المعادلات الإقليمية والدولية المهتمة ببلادهم. لكل بلد نسقه الدبلوماسي والسياسي المحيط به خارج حدوده الدولية، ناهيك عن التمثيل الدبلوماسي والسياسي للدول والمنظمات الدولية المقيمة في البلاد من سفارات ومكاتب مختلفة التوجهات ولها امتداداتها مع الداخل. بمعنى آخر هناك مصالح لبعض الدول والجماعات في البلاد، ويراد لهذه المصالح أن تستمر أو أن تنمو وتكبر، سواء كانت مصالح اقتصادية أو سياسية أو دينية ومذهبية. فالنسق الدبلوماسي والسياسي في البحرين أفضى لدخول درع الجزيرة، والسياق الدبلوماسي والسياسي لليبيا أفضى لتدخل الناتو وهيئة الأمم المتحدة، والمجال الدبلوماسي والسياسي لليمن أفضى لطرح المبادرة الخليجية لحل الأزمة فيها.

بالطبع ليس غائباً العامل الدولي وقراره عن تلك الساحات، بل هو حاضرٌ وبقوة. وعليه، يكون للعوامل الخارجية دور المرجح لكفة ميزان حراك الشباب نحو النجاح أو الفشل، ولكن، كما يبدو لنا، أن منطلق هذا العامل وقوته يتحدد من خلال قوة وضعف العاملين الأول والثاني (العوامل الذاتية والعوامل المحيطة لحراك الشباب). فحجم حراك الشباب المصري ومن قبله التونسي لم يُعطيا للعامل الدولي فرصة للمناورة والتقدم على سبيل المثال.

الأمر المقطوع فيه، أن الأوضاع لن تعود كما كانت عليه قبل الأحداث والتطورات في

البلدان التي مر بها قطار الثورات العربية، والتي يمر بها اليوم، أو التي سيمر بها غداً. هناك تغيير ما، وبحجم ما سيحدث. أما ما مدى منسوب الإصلاح الذي سيخلفه في الأمة؟ فهو متروك للتفاعل الكيميائي لتلك العوامل التي ذكرناها بحيث ينتج عنها مولود جديد وهو ما ستكشف عنه الفترة القادمة.

على ضوء جل تلك العوامل وتفاعلاتها الكيميائية ينتج نجاح أو فشل حراك الشارع العربي، ومستوى النتائج سيعتمد على غلبة عامل منها على بقية العوامل، كما في تركيب وتعديل وتطوير المعادلات الكيميائية، فقد يغلب عاملان فيحدث النجاح أو الفشل. عندما غلب العامل الذاتي في تونس ومصر، لصالح الشباب وليس النظام، سقط النظام برمته. وعندما غلب العامل الخارجي في البحرين، حتى لحظة كتابة هذه الصفحات، خمدت الثورة. وعندما غلب العامل الذاتي في سوريا، لصالح النظام، حتى اللحظة، لم تتقدم الثورة. وهكذا دواليك.

الشباب عبر العصور

من يدرس التاريخ يجد أن أغلب عمليات التغيير في الأمم مصدرها اندفاع الشباب وقناعتهم بضرورة التغيير. كل الحضارات قامت على أكتاف الشباب وهمتهم. أول الذين آمنوا بالرسول محمد ﷺ مؤسس الحضارة الإسلامية هم الشباب، وكذلك من آمن ببقية الرسل والأنبياء أولاً هم الشباب. ويجد الدارس لصفحات الثورات في الأمم كالثورة البلشفية في روسيا والثورة الفرنسية في أوربا والثورة الإسلامية في إيران وبقية الثورات؛ أن عمادها الأساس هم الشباب. ويجد أيضاً أن معظم الحركات الدينية والسياسية والثقافية والاجتماعية تأسست على سواعد الشباب وهمتهم.

فالشباب هم الماكينة الدافعة للتغيير عبر التاريخ سواء كان التغيير نحو الأحسن كما حدث في الثورة الروسية والثورة الفرنسية والثورة الإسلامية في إيران، أو كان التغيير نحو الأسوأ كما يجري في المطالبات بالحقوق المثلية وحقوق الشاذين وحقوق المدمنين، أو كما هم كذلك عماد تنظيم القاعدة الإرهابي في جميع البلدان والدول.فقد مارست المنظمات الشبابية في ألمانيا دوراً بارزاً في بث الأفكار الهتلرية وفي إيصال هتلر إلى الحكم حتى بات الشباب معروفين باسم «الشبيبة الهتلرية - Hitler Jugend» ومن تلك المنظمات: «منظمة الشبيبة الهتلرية» عام ١٩٢٦م ووصل عدد أعضائها في عام ١٩٣٢م ١٣٥,٠٠٠ عضو، وأمسى لاحقاً على من أراد الانضمام للمنظمة في سن الرابعة عشر أن يلتحق في سن العاشرة إلى منظمة تسمى «بيمفن»، وقبلها عليه منذ الثامنة أن يمر في آلـ«جونغفولك». وعلى الصعيد النسائي، كان «اتحاد الشابات الألمانيات» يستقطب الفتيات ما بين سن الـ ١٤ والـ ٢١ متوازياً بذلك مع «الشبيبة الهتلرية»(٢).

(٢) موسوعة السياسة: ٣/ ٤٣٨.

لذا نجد أن شباب الجامعات وشاباتها كانوا عماد تشكُّل النقابات الطلابية المعبرة سياسيًّا عن قبول أو رفض الواقع المعاش كما جرى ذلك في دول المغرب العربي وأوربا ودول شرق أسيا، وباتوا اليوم هم الشريحة التي تقوم عليها أغلب مؤسسات المجتمع المدني في العالم قاطبة.

من هم الشباب؟

يلاحظ عند محاولة تحديد السن المقصود من مفردة «الشباب» وجود التداخل في أغلب التعريفات المتخصصة للمرحلة العمرية عند الشباب بين تعريفات سن المراهقة وما بعدها، لذا فضلنا طرحها قبل الدخول في تعريفاتها النفسية والاجتماعية وتوصيفاتها. منها ما جاء في آيات القرآن المبين، ومنها ما جاء في العلوم الأخرى، وسنذكر بعضها على نحو الاختصار غير المخل ونسأل الله التوفيق في ذلك. وسنبدأ بالآيات والروايات:

﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾[٣]. جاء في بعض كتب التفسير أن إبراهيم عليه السلام لمّا ألقي في النار لم يكن عمره يتجاوز ست عشرة سنة، وذكر البعض الآخر أن عمره عند ذاك كان (٢٦) سنة. وعلى كل حال فإنه كان في عمر الشباب[٤].. وجاء في تفسير الآية: أي أن في المدينة شاباً يذكر الأصنام بسوء لعله هو الذي صنع هذا الصنيع[٥].

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾[٦]. قال موسى لفتاه: أي شابه الذي كان يلازمه ويخدمه، وهو يوشع بن نون، وقد كان وصيًّا لموسى[٧].

وجاء في آية ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا﴾[٨]، الفتى الغلام الشاب، والمرأة فتاة[٩]. وفي آية ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ﴾[١٠]، والتقدير: فسجن يوسف ودخل معه السجن فتيان أي شابان حدثان[١١].

وفي آية ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ﴾[١٢]، الفتية جمع فتى، أي الشبان[١٣]، وقيل:

(٣) سورة الأنبياء ٦٠.
(٤) تفسير الأمثل: ١٠/ ١٣٩.
(٥) تقريب القرآن: ٣/ ٥٥٣.
(٦) سورة الكهف ٦٠.
(٧) تقريب القرآن: ٣/٤٠٢.
(٨) سورة يوسف ٣٠.
(٩)مجمع البيان: ٥-٦/٢٩٦.
(١٠) سورة يوسف ٣٦.
(١١) مجمع البيان: ٥-٦/٣٠٠.
(١٢)سورة الكهف ١٠.
(١٣)تقريب القرآن: ٣/٣٦٤ والميزان: ١٣/٢٠٠.

إذا التجأ أُولئك الشبان إلى الكهف[١٤]. وفي آية ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آَمَنُوا بِرَبِّهِمْ﴾[١٥]، أي أحداث وشباب[١٦]. وقيل: أي شبان[١٧].

ومما جاء في الروايات المفيدة في موضوع تحديد سن الشباب:

قال أمير المؤمنين عليه السلام: «يرف (يُربّى) الصبيُّ سبعاً ويُؤدبُ سبعاً ويُستخدمُ سبعاً، ومنتهى طوله في ثلاثٍ وعشرين سنةً، وعقله في خمسٍ وثلاثين، وما كان بعد ذلك فبالتجارب»[١٨].

قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «الولدُ سيدٌ سبع سنين، وعبدٌ سبع سنين، ووزيرٌ سبع سنين»[١٩].

وهنا، بعض الأقوال والتعريفات المساعدة، منها: المراهق هو الشخص الذي تجاوز مرحلة الطفولة ولم يبلغ الحلم بعد. وتعتبر معظم المجتمعات الشخص مراهقاً من سن ١٣ إلى ١٨ سنة على الأقل. اليوم يصبح الفرد بالغاً قانوناً في سن ١٨ في معظم البلدان[٢٠]. الفتى: والفتية: الشاب والشابة[٢١]. الشباب: جمع شاب[٢٢]. وجمع شبيبة شبائب: الفتاء وهو من سن البلوغ إلى الثلاثين تقريباً[٢٣]. الشباب: هم الأفراد الذين تتراوح أعمارهم بين الثامنة عشرة والرابعة والعشرين، أي الذين أتموا عادة الدراسة العامة[٢٤].

يعتبر علم الاجتماع، الشباب: جماعة عمرية يشترك أعضاؤها ببعض الصفات مثل العمر والعرق والثقافة المتقاربة وأبرز صفاتهم:

١- درجة عالية من التضامن الاجتماعي.

٢- تنظيم متدرج.

٣- رموز رافضة تستخدم للمقارنة مع قيم الراشدين وخبراتهم[٢٥].

ويُطلق الأرضيون -وبعض نصوص التشريع أيضاً- اسم (المراهقة) على بداية المرحلة الراشدة... وإنّ مرحلة (المراهقة) تُعد في البحوث الأرضية ذات خطورة من نمط آخر. وقد أفاضت البحوث في الحديث عن طابع المراهقة بكل تفصيلاتها، فيما يمكن لمُّها في خصوصيتين رئيسيتين هما: استقلال الشخصية، وتموّجاتها. ويُقصد بالاستقلال: أن الشخصية تبدأ

(١٤) مجمع البيان: ٥-٦/٥٨٤.

(١٥) سورة الكهف ١٣.

(١٦) مجمع البيان: ٥-٦/٥٨٦.

(١٧) تقريب القرآن: ٣/٣٦٦.

(١٨) وسائل الشيعة: ١٥/١٠٥/٥.

(١٩) وسائل الشيعة: ١٥/١٠٥/٧.

(٢٠) الموسوعة العربية العالمية: ٢٣/٧٥.

(٢١) الموسوعة الجامعة لمصطلحات الفكر العربي والإسلامي: ٢/٢٠٢٥.

(٢٢) لسان العرب: ٨/١٠.

(٢٣) المنجد في اللغة والأعلام: ٣٧١.

(٢٤) معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية: ٤٥٢

(٢٥) معجم علم الاجتماع المعاصر: ٣٣٤.

بالتحسس بأنها كيان مستقل عن أسرته. أما تموّجاتها، فيقصد من ذلك الاضطراب أو التقلب أو التردد في الانتهاء إلى الموقف الحاسم الذي تختطه الشخصية لمستقبلها سواء أكان ذلك متصلاً بمشكلاتها الفكرية أو الاقتصادية أو الاجتماعية بعامة(٢٦).

وهناك صورتان لحالة الشباب قد يظنهما البعض متناقضتين، بينما هما ليستا كذلك، لأنهما حالتان طبيعيتان يعيشهما الشاب في مرحلة المراهقة. فمن جهة يرغب الشاب في أن يكون قوي البنية جسديًّا، جميل المظهر في طلته وزينته، يتمنى أن يكون الأفضل بين أقرانه، لديه حس الإبداع والمبادرة، سريع التأثر، حب التغيير والميل للجديد والتجديد دائماً، الرغبة في الاستقلال الاقتصادي والحصول على صلاحيات التصرف بالمال، المطالبة بالمزيد من الحرية... ومن جهة أخرى قد يحب الانزواء والوحدة، عنده رغبات جامحة وبعضها وهمية، وأحلام عاطفية، يمتاز بالحساسية المفرطة، قد يكون عنده اضطرابات نفسية أو فكرية أحياناً، التردد بين التمرد على العادات والتقاليد أو التقيد بالتقاليد السائدة، العناد والكسل، الميل لإبراز الشخصية وجلب انتباه الآخرين وحب الظهور(٢٧).

هاتان الصورتان تجعلان الشاب يعيش مجموعة من الصراعات مع الذات، صراع بين الرغبات العاطفية والمتطلبات العقلية، صراع بين التقليد والتجديد، صراع بين الاستقلالية والتبعية، صراع بين العاطفة والعقل، صراع بين الانطلاق في الحرية والتقيد بالقانون والنظام والقيم والأعراف، صراع بين الحب في الحوار والنقاش والنفور من الوعظ والإرشاد... لذا نجد الشاب -المراهق- ينتقل من مزاج إلى آخر، وتتبدل حالته النفسية من وضع إلى ضده. ويبدو أن هذه الحالة هي ما أراد التعبير عنها نبينا محمد ﷺ بقوله: «الشباب شعبة من الجنون»(٢٨). أما ما يجعل الغلبة لجانب دون آخر فهو مجموع العوامل الذاتية المكونة لشخصية الشاب والعوامل المحيطة به في بيئته الأسرية والاجتماعية والسياسية. وكما يلاحظ في العالم العربي اليوم غلبة العنصر السياسي كعامل تأثر به الشباب وتفاعل معه على الكثير من العوامل الأخرى. قال أمير المؤمنين عليه السلام: «لا يزال العقل والحمق يتغالبان على الرجل إلى ثماني عشرة سنة، فإذا بلغها غلب عليه أكثرهما فيه»(٢٩).

هل تفهم الأمة شباب العصر؟

قال صديقي الخمسيني وهو من حملة الدكتوراه: أنا لا أدعي فهم شباب اليوم، وأجد

(٢٦) دراسات في علم النفس الإسلامي: ١٠٠

(٢٧) للمزيد من الإلمام والتوسع في هذا الجانب يمكن مراجعة كتاب: الشاب بين العقل والعاطفة، للشيخ محمد تقي فلسفي.

(٢٨) موسوعة أحاديث أهل البيت ع: ٥/ ٢٦٠ ح٥٩٠٦.

(٢٩) بحار الأنوار: ١/ ٨٦/ ٤٩.

أن اللغة بيني وبينهم قاصرة عن مد جسور تتفهمهم، لأن لهذا الجيل، اليوم، لغته الخاصة ومشاكله الخاصة، وهي بحاجة إلى جهد للفهم والتفهم. ما قاله صديقنا قد عبر عنه بعض الدارسين الاجتماعيين والمتابعين بطرق أخرى، لكنها مجتمعة تفيد بضرورة إعادة قراءة وصياغة فهم أوضاع الشباب ودراسة مشاكلهم وتفهم حاجاتهم ولغة التواصل بينهم لإدراك بيئتهم التي يسبحون فيها، ومن ثم امتلاك القدرة على التفاهم والتواصل معهم.

أهمية هذه النقطة لا تنبع من كونها المدخل لمعرفة ارتباط تطلعاتهم وطموحاتهم تجاه الإصلاح والتغيير في الأمة فحسب، بل هي المدخل لمجموعة من المسارات المؤثرة في حياتهم ومستقبلهم. الآباء والأمهات بحاجة لها ليتمكنوا من التعامل مع أبنائهم. علماء الدين بحاجة لها ليتمكنوا من وضع البدائل الشرعية لتوجيههم. مدراء المدارس والجامعات والمعلمون بحاجة لها لينطلقوا منها نحو تفعيل آليات وأدوات ومبادئ تؤسس لتعليم ناجح للشباب. جميع مؤسسات المجتمع المدني بحاجة لها، لأن أغلب المتطوعين فيها من جيل الشباب كالأندية الرياضية والفنية وغيرهما...

وتزداد أهمية هذه النقطة عند المعنيين بالتخطيط لهذه الفئة في الدول والمجتمعات، وعند راسمي مناهج التربية والتعليم، وكذلك التعليم العالي، بخاصة وأن هذه الفئة تُشكل ما يفوق على ٥٠ في المائة من سكان العالم بما فيها البلدان الإسلامية والعربية. لذا فإن المطلوب من الجميع بحث ودراسة هذا الموضوع، الأسرة، قطاع التعليم، المخططين، مدراء وأصحاب مؤسسات المجتمع المدني، كلهم معنيون بمحاولة فهم وتفهم جيل شباب اليوم.

لا نبتغي المبالغة في طرح الموضوع. لذا، وقبل كل شيء، ينبغي عدم تهوين أو تهويل مسألة فهم وتفهم الشباب. هم شريحة اجتماعية قائمة بيننا، فالحديث عنهم ليس حديثاً عن فئة تعيش في كوكب آخر لا نعرف أوصافها وحجمها وبيئتها الغريبة عنا، وإنما الحديث عن فئة تعيش بيننا ونتعامل معها بشكل يومي. ولقائل أن يقول: فلماذا يتم طرح هذا الموضوع؟. نقول: ما جعل الموضوع مثاراً للطرح في السنوات العشر الأخيرة تقريباً هو ثورة الاتصالات والتواصل الجديدة بين الناس. في زيارة لي للولايات المتحدة الأمريكية قبل اثنتي عشرة سنة، وجدت حينها، أن بعض مراكز الدراسات والأبحاث الأمريكية المرتبطة بالدولة والجامعات تبحث في الفجوة الاجتماعية الآخذة بالتزايد بين الأبناء والآباء والأمهات بسبب انشغال جيل الشباب والشابات بالإنترنت ومتابعة الفضائيات.

قبل أشهر شكت لي إحدى الأخوات وضع زوجها الشاب المنشغل بمتابعة صفحته في الفيسبوك وتويتر لدرجة الانغماس مما جعله حاضراً غائباً عنها وعن أولادها، حتى عندما يجتمع مع والديه وإخوانه وأخواته، يكون مشغولاً عن الجميع بالآي فون لمتابعة شبكة الإنترنت! ويقول قريب لنا: ذات يوم أسبوعي يجتمع فيه أفراد عائلتنا لاحظت وجود عشرة منا منشغلين إما بالآي فون أو باللابتوب طوال ساعات في مجلس واحد!

أظهرت دراسة أمريكية أن واحداً من أصل كل ٢٥ مراهقاً في الولايات المتحدة يقول: إن لديه «نزوعاً لا يُقاوم» نحو زيادة الوقت الذي يمضيه على الإنترنت، الأمر الذي حدا بالخبراء إلى التساؤل عن ظاهرة «إدمان الشبكة» لدى جيل الشباب. كما وجدت الدراسة، والتي شملت أكثر من ٣٥٠٠ طالب وطالبة من طلاب المدارس الثانوية في ولاية كونيكتيكات الأمريكية، أن المشاركين الذين يعانون من «مشاكل في استخدام الإنترنت» هم أكثر احتمالاً للإصابة بأعراض الاكتئاب والسلوك العدواني وتعاطي المخدرات، وذلك مقارنة بنظرائهم الذين ليس لديهم مثل تلك المشاكل. ففي مقال نشروه في مجلة كلينيكال سيكولوجي (فصلية علم النفس السريري)، قال الباحثون: «قد يكون الاستخدام الإشكالي للإنترنت موجوداً لدى حوالي أربعة بالمائة من طلاب المدارس الثانوية في الولايات المتحدة»[٣٠].

دق مراسل صحيفة كريستيان ساينس مونيتور ناقوس الخطر في تقرير مطول من واشنطن، يتطرق فيه إلى تأثير وسائل الإعلام الإلكتروني الجديدة على الصحافة التقليدية. ومما جاء فيه:

لدينا الفيسبوك وتويتر اللذان أصبحا منهل الشباب للحصول على الأخبار. وفي بحث لمركز بو للأبحاث يرى ٦٠٪ من الفئة العمرية ١٨-٢٩ عاماً أنه من الضروري مشاركة الأخبار والحوادث مع الآخرين عبر رفعها على الفيسبوك أو بواسطة البريد الإلكتروني. يذكر أن هذه النسبة هي الأكبر بين جميع الفئات العمرية الأخرى. وهنا يتطرق تشيني إلى تهديد يعتبره في غاية الأهمية، حيث يقول: إن خبراء الديمقراطية أبدوا مخاوف عميقة من حبس الشباب لأنفسهم داخل مجموعة من الأصدقاء عبر الفيسبوك، وهم في الغالب أصدقاء يعرفونهم شخصيًّا أو تجمعهم بهم اهتمامات أكاديمية ومعرفية، وينحدرون من خلفية متشابهة[٣١].

تلك اللقطات ليست للحصر وإنما لتقريب الصورة للذهن. وهي ليست حالات فردية فنتجاوزها، وإنما حالات واسعة تحتاج إلى التوقف عندها والتأمل فيها. فهاتف الجوال بأنواعه المتطورة للتواصل بالصوت والصورة والنت، واللابتوبات، وصفحات الفيسبوك، وصفحات تويتر، جميعها كانت أساس التواصل الاجتماعي الذي شكل بيئة حراك الشباب العربي في تحريك الشارع فاسقط أنظمة، وجعل بعضها يترنح، وجعل أخرى تستبق الأحداث عبر خطوات استباقية تتقي بها ما حدث في غيرها من الدول. حراك الشباب اعتمد على هذه الوسائل في نقل همومهم وطموحاتهم من الصفحات الافتراضية على الشبكة العنكبوتية

(٣٠) موقع بي بي سي العربي:
http://www.bbc.co.uk/arabic/scienceandtech/2011110520/05/_internet_addiction.shtm

(٣١) تقرير صحفي في ١٥/ ٥/ ٢٠١١م بعنوان: في ظل تنامي استخدام الإنترنت وسيلة إخبارية، هل ولى زمن الصحافة التقليدية؟ / موقع الجزيرة نت:
http://www.aljazeera.net/NR/exeres/6A4A6965-DF9043-DF-A3AE-7FB7A9C9A9C5.htm

إلى ميادين التحرير وشوارعها في تونس ومصر وليبيا واليمن وسوريا والبحرين.

حتى أشهر قليلة كانت الصورة المنطبعة في أذهان الكثيرين، ربما، تغلب عليها الجانب السلبي من الانشغال والتشاغل بتلك الوسائل عن الأسرة والمجتمع. بيد أن ما حدث في «ربيع الثورات العربية» بدل شيئاً من تلك الصورة. لا يعني ذلك انتفاء الصورة السلبية، وإنما سطوع للجانب الايجابي منها، لأن ما قام به الشباب يعبر عن قدرة على نقل مجتمعهم الافتراضي في النت، أو الوهمي كما يسميه البعض، إلى مجتمع حقيقي وواقعي على الأرض وفي الساحات والأزقة. هذا هو «مجتمع الفيسبوك» أو «مجتمع شباب الفيسبوك».

لم يكن مجتمع الشباب في الفيسبوك مقنعاً للكثيرين بأنه مجتمع حقيقي وواقعي ومن الممكن أن يصنع تفاعلاً بين أهله وعناصره. بمعنى آخر لم يكن ذلك المجتمع منظوراً وملموساً على الأرض، لذا أُطلق عليه اسم «المجتمع الافتراضي» أو «المجتمع الوهمي». لا لأنه غير موجود، وإنما لأنه، مقارنة بالمجتمع الطبيعي، غير متشكل في بيئة تتكون من أفراد يحتكون ويحاكون بعضهم وجهاً لوجه، يقرؤون تفاعل الآخرين تجاههم من حركات أجسادهم ووجوههم، فيلمسون رضاهم أو رفضهم أو مواقفهم من خلالها وعبر ما يسمعوه بأذانهم منهم مباشرة، وغالباً ما يكون هذا الاحتكاك الاجتماعي بين أفراد يعرفون بعضهم، أو في طريقهم للتعارف المباشر. منذ خلق الله البشرية والتدافع الاجتماعي بين الناس يقوم على الاحتكاك والمحاكاة المباشرة بين أفراد المجتمع. لا يزال هذا التدافع هو القائم والسائد في المجتمعات العالمية. الجديد اليوم، أننا أمام مجتمع من نوع آخر «مجتمع الفيسبوك».

يقتصر التفاعل بين أفراد «مجتمع الفيسبوك» على الكتابة النصية في أغلب الأوقات، وعلى الصوت في بعض الأحيان، وفي أوقات أقل يكون التفاعل بالصوت والصورة. هنا، يجد المراقب لهذا المجتمع أو المتعامل معه، أن هناك لغة نصية غير مألوفة يتم تداولها بين المشتركين فيه. حروف ترمز إلى أشياء، وكلمات ترمز إلى صفات، ومصطلحات ترمز إلى تقنيات محددة... وتزداد هذه الحيثيات غموضاً كلما كان المشتركون مسجلين بأسماء حقيقية، لأن بعضاً من التكاشف في تناول الموضوعات بالأسماء المستعارة يجعلها أقل غموضاً. فنسبة الغموض التي تصل إلى السرية في تداول الموضوعات أو الأسماء هي من سمات المجتمع الإلكتروني.

ومن الملاحظ على مجتمع «الفيسبوك» أن المشترك يتعامل مع مجتمع واسع وشرائح متداخلة وكثيرة، ومن جنسيات لا محدودة، بل تسقط القطرية والحدود الجغرافية بين المشتركين، وهنا ميزة أخرى لهذا المجتمع، وهي ارتفاع حواجز نفسية ورسمية بين المتواصلين فيه الذين تربطهم هموم مشتركة وصفات ذاتية تجمعهم في هذه الصفحة أو تلك. بيد أن المشتركين يتحولون بالتدريج إلى مجتمعات أضيق بحثاً عن همّ واحد مشترك أو مطلب واحد جامع بينهم، كصفحة علمية أو سياسية أو فنية... إلخ، وكما يحدث في المجتمع الطبيعي بين التضييق والتوسع في بناء الشلل الاجتماعية وتفككها هو كذلك في مجتمع النت،

ولكن بقدر ما طريق تفكيك الشلل الاجتماعية غير سهل الحدوث، يمكن القول: إن شللية مجتمع النت سهلة التفكك والخروج منها بمجرد أن يقرر الفرد المشترك ذلك.

في مجتمع النت ليس للمشتركين المتشاركين في صفحة منه ضرورة التقارب بين أفراده في العمر والصفات كما هو الأغلب والأعم على المجتمع الطبيعي. فقد يجد المشارك أعمار متباينة ومتعارفة ومتداخلة في صفحة واحدة، لكن كلما كانت موضوعات الصفحة أكثر عمقاً موضوعيًّا في مجالات العلوم والفكر والسياسة تتقلص غالباً الصفة العمرية بين المتشاركين لتجتمع كل فئة عمرية على مطالبها المشتركة. هنا لا نجد الأمر يتعلق بالشباب بشكل خاص، ولكن غالباً ما يجتمع الشباب على هموم مشتركة قد يبتعد عنها الأكبر سنًّا وذلك لوجود فوارق نفسية تجمعهم وتبعدهم عن الأكبر سنًّا كالحماس وحب المغامرة والرغبة في التجديد والتمرد على الحياة التقليدية، وهو ما حصل في موضوع «مجتمع شباب الثورات العربية» على شبكة الإنترنت.

ربما هناك نقطة إضافية على ما سبق، وهي أن الشاب في مجتمع النت وجد حياة بديلة عن حياته الطبيعية، وإن لم تعوضه كل التعويض، فقد وجد من يُصغي إليه، ويستمع لمشاكله وفضفضاته، ويناقشه فيها، وقد يبادله المشاعر ويواسيه إذا ما احتاج للمواساة، ويضاحكه ويسايره في كل لحظة ويوم، ويأتي ذلك في عالم المجتمع الطبيعي الذي تشاغل فيه الآباء والأمهات عن أبنائهم بهموم ومتطلبات الحياة اليومية استجابة لسرعة إيقاع الحياة العصرية والركض اليومي وراء الالتزامات التي لا تتوقف. فلا غرابة من وجود حالة من الغربة بين الأبناء والآباء عندما يعيش الجميع هذه الحالة، فيغيب التواصل وتضعف لغة التفاهم والتفهم وتبدأ الفجوة بين الجيلين في الاتساع.

لذا، ومن جهة أخرى مهمة، لم تعد صياغة شخصية الشاب والشابة مرتبطة حصراً بالمؤسستين التقليديتين الأسرة والمدرسة ومجتمعه الصغير والطبيعي كالسابق. سيبقى دورهما أساسي، ولكن لا ينحصر بهما، إذ بات للمجتمع الإنترنتي تأثير واضح على تطلعاتهم ونوعية همومهم وطبيعة ميولهم وطرائق تفكيرهم، لأن الشباب، جل الشباب، وجدوا في مجتمع النت تلبية لأغلب حاجاتهم ابتداءً بالألعاب المسلية والمتنوعة التي تستجيب مع طبيعة تفكير كل واحد منهم، ومروراً بالمواقع الرياضية المتعلقة بالألعاب الرياضية المحببة لديهم، وصفحات التعارف بين الجنس الواحد أو بين الجنسين، وصفحات التعليم والتعلم، وصفحات البحث والإعلام والموضة والحوارات السياسية المثيرة والساخنة، وانتهاءً بجميع المواقع والصفحات، الصالح منها والطالح. فبضغطة زر صغير يدخل الشاب في عالمه الأقرب إلى نفسيته وفكره ومزاجه في كل وقت وكل مكان.

مما يدفع الشاب للدخول والتفاعل مع هذا المجتمع: الرغبة في المشاركة وإثبات وجوده وحضوره والتعبير عن رأيه، والحماس لما يحب ويرغب، والتمرد على الروتين الاجتماعي،

وحب المغامرة عبر اقتحام كل الأبواب، وحب الفضول لمعرفة كل شيء بوقت قصير، الاندفاع لكل جديد والميل للتجديد، وربما الهروب من الواقع، أو الرغبة في إفراغ شحنة من الغضب والعاطفة... إلخ.

لا يعني جل ما سبق، لفهم الشباب وتفهمهم، أنهم يعيشون في العالم الافتراضي فقط، بالطبع لا، وإنما تلك الصورة باتت اليوم الأكثر سطوعاً في حياتهم، والتي تتطلب مزيداً من البحوث الميدانية والاجتماعية لمعرفة مقدار تأثيرها في حياتهم، ومعرفة حجم أهميتها في صياغة شخصيتهم. وتبقى للحياة الاجتماعية التقليدية، الأسرة والمدرسة والحارة والأصدقاء، تبقى لها دائرة التأثير الأولى، بل تبقى هذه الحياة هي الأساس لتحديد مجتمع النت الذي يختاره، وهي المفتاح الذي يُشكل ويرسم قرارات الشاب حول اختياراته وتنقلاته داخل مجتمع الفيسبوك، فإذا ما مالت شخصيته للدين والمتدينين كانت خياراته النتية في هذا الاتجاه، وإذا ما كانت نفسيته ميالة للساسة والسياسة ستركن حينها للمواقع النتية ذات الطابع السياسي، وإذا ما شطح مزاجه للانحراف والمنحرفين، لا سمح الله، سيخوض مع وفي مجتمع النت الفاسد والعياذ بالله.

لا يمكن الادِّعاء بأن أمتنا اليوم تفهم شبابها، ولا يمكن الزعم بأنها لا تتفهمهم، ولكن يمكن القول بأنها تعيش حالة قصور عن تفهمهم والتفاهم معهم. فالأمة اليوم، الأسرة والمدرسة والمجتمع والدولة، بحاجة إلى إعادة صياغة فهمها للشباب بمنظار جديد يأخذ بالاعتبار كل الظروف المحيطة بهم، لاسيما تلك المجالات التي تأخذ الحيز الأكبر من اهتماماتهم وانشغالاتهم.

مشاكل الشباب

لا بد لفهم وتفهم الشباب معرفة مشاكلهم وشكاواهم. لا شك في وجود مشاكل خاصة بهم كبقية الشرائح الاجتماعية. نتحدث هنا عن مشاكل عامة يعيشها معظمهم، لا المشاكل الفردية الخاصة. مشاكل تسبب إشكالات متعددة، تارة لأنفسهم، وأخرى لمحيطهم. سنحاول التطرق لبعضها كشواهد لما نريد طرحه، مثل الفراغ وسوداوية المستقبل، وإلا فالموضوع بحاجة إلى دراسة منفصلة.

مشكلة أوقات الفراغ الطويلة التي يعاني منها قطاع واسع من الشباب على مدار السنة، لاسيما فترة الصيف عندما تتعطل الدراسة في المدارس والجامعات. قد أشبعت كتابات وبحوث كثيرة مشكلة الفراغ عند الشباب، ولكن هل فهمت أمتنا حجم المشكلة وتبعاتها على الشباب والمجتمع؟ نأمل ذلك. الدراسات المتوفرة حول الشباب على مستوى الخليج والوطن العربيين خلال العقود الثلاثة الماضية التي تناولت قضايا الشباب من زوايا وأبعاد مختلفة، تؤكد أغلبها أن مشكلة أوقات الفراغ الزائدة في حياتهم من المسببات الرئيسية السلبية

لأوضاعهم السيئة على جوانب حياتهم المختلفة، منها ما أشار إليه الباحث عبدالعزيز بن حمود الشثري من جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بأن (٨٣٪) من عينة دراسته توجد لديهم أوقات فراغ طويلة لا يستطيعون شغلها.

إلا الشباب (من ١٥ إلى ٢٠ سنة) يشعرون في هذه المرحلة بالتغييرات النفسية والجسدية فيهتمون بمظاهرهم الشكلية وقوتهم البدنية، ويحتاجون إلى صرف نشاطهم وحيويتهم وطاقاتهم في مجالات تحافظ على توازنهم النفسي والعقلي والعاطفي وينفع أيضاً ويصب في تشكيل مستقبلهم. وتحقيق ذلك يستلزم وجود دوافع ذاتية تكون بمثابة المولدات التي لا تخمد عن تحريكهم وتتوافق في الوقت ذاته مع حالتي الحماس والتمرد اللتين ترافق هذه المرحلة العمرية.

الدوافع الذاتية تتكون من خلال سد الفراغ المعنوي والعقلي والروحي عندهم، وبالتالي تساهم هذه العملية في خلق مجموعة من الآفاق النظرية والعملية مما ينعدم مع وجودها حالة الفراغ الزائد في حياتهم وأوقاتهم، فالفراغ المعنوي يجعل الشاب عرضة لاهتزاز هويته وضعف طموحاته الحياتية والفراغ العقلي يُفضي إلى توقف مسيرته العلمية وخمول تطلعاته الأسرية والاجتماعية، والفراغ الروحي يؤدي إلى انزلاقه في الطرق الوعرة فكريًّا وسلوكيًّا، ومن ثم تصبح معالجته أكثر كلفة وعودته تتطلب مشاريع تستنزف الجهد والمال والوقت.

لا نريد أن نكرر ما بحثه الآخرون في هذه المشكلة، ولكن نسلط الضوء على حاجات الشباب والأدوار المطلوبة فقط، عبر اللقطات التالية، وهي تحدث طوال العام ولكنها تتسع وتكبر في فترة الصيف لوجود فراغ كبير عند الشباب:

السفر من أجل السياحة. اللعب رغبة في التسلية. السهر في الليل والنوم في النهار. التسوق والتمشية في الأسواق والمجمعات التجارية. رحلات برية للشباب في العمق الصحراوي. وأخرى بحرية لشباب السواحل. متابعات للحفلات الغنائية والمسرحية. متابعات للبطولات الرياضية، الصغيرة والكبيرة، وسباقات السيارات. ملاحقة أخبار أبطال الرياضة والفنانين. التنقل عبر الفضاء من قناة إلى أخرى. الدردشة الطويلة على مواقع الإنترنت. نسبة الوقت خارج البيت هي الأساس. يعودون للمنازل للنوم وتغيير الملابس، وكأنها فنادق الصيف للشباب غير المسافر.

صيف الشباب العربي، في كل عام، يتكرر مع قليل من التغيير. العناوين السابقة من صور ممارساتهم الصيفية تعبر عن طبيعة النشاطات التي تعكس شخصية الشاب العربي في فترة الصيف. بيد أن أغلبها غير منتج. فتميل شخصية الشباب أو الشابات نحو عادة الاستهلاك وإدمانه، أكثر من مجرد التفكير في أن يكونوا منتجين. ولكنها تعبر أيضاً عن مكنونات تريد الانعتاق. وعن طاقات تبحث عن التصريف والاستثمار. وعن حاجات نفسية

تحتاج إلى من يفهمها ويعرف كيفية التعاطي معها. وعن حاجات عاطفية ينبغي استيعابها واحتواؤها. وأهم من كل ذلك معرفة حاجات الشباب ومتطلباتهم الحقيقية.

إن أهم حاجات الشباب، كما شرحها، قبل سنوات، برنامج الأمم المتحدة الإنمائي في الأردن، هي:

١- الحاجة إلى الشعور بالأمان.

٢- الحاجة للتعبير الابتكاري.

٣- الحاجة إلى الانتماء.

٤- الحاجة إلى المنافسة.

٥- الحاجة إلى خدمة الآخرين.

٦- الحاجة إلى الحرية والنشاط.

٧- الحاجة إلى الشعور بالأهمية.

٨- الحاجة إلى ممارسة خبرات جديدة والشعور بالمخاطرة.

من هنا ينبثق الفرق بين النشاط المقنن والآخر غير المقنن. فالأول يصب في خانة احتياجات الشباب، وبالتالي يسير وفق النسق الذي تتطلبه الخطط التنموية. بينما الثاني يسير «وفق ما اتفق» مع حالة الشاب ووضع أسرته وأصدقائه ومجتمعه ومحيطه. بل يسير استجابة للحظة الراهنة وبأي اتجاه تأخذه الأجواء حينها. لاسيما الشباب ذوي الطموحات البسيطة والثقافة السطحية. لذا تأتي ضرورة إعطاء الأولوية لمسألة تحديد الأدوار المطلوبة من الشباب والشابات فيما يخدم النفس والمجتمع والوطن. بخاصة تلك الأدوار التي ترفد كل فروع التنمية البشرية علميًّا وتقنيًّا واقتصاديًّا وثقافيًّا. وهي كثيرة جدًّا.

نكتفي بالإشارة لبعض الأدوار المذكورة في البرنامج الإنمائي السابق. وهي:

١- المشاركة في تحديد احتياجات المجتمع المختلفة وإعداد الخطط اللازمة تبعاً لقدراته.

٢- المشاركة الفعلية في بناء أمن المجتمع واستقراره من خلال المؤسسات المختلفة.

٣- إسهام الشباب في الخدمات الاجتماعية والتطوعية.

٤- المشاركة في البرامج التعليمية التربوية مثل محو الأمية، ودورات التثقيف والتوعية..إلخ.

٥- الإسهام في ترسيخ الحضارة والتراث الشعبي والوطني.

٦- توصيل ونقل خبرات وعلوم ومعارف وثقافات الشعوب الأخرى وانتقاء الأفضل والصالح لخدمة المجتمع.

٧- المشاركة في حماية أمن وسيادة الوطن[٣٢].

ويعاني الشباب من مشكلة تقلقهم كثيراً، وهي سوداوية المستقبل وفقدان الأمل بمصيرهم لا سيما بعد التخرج من الثانوية أو الجامعة، بخاصة مع وجود زيادة سكانية

(٣٢) من مقال للكاتب تم نشره في صحيفة عكاظ السعودية في ١٢/ ٧/ ٢٠٠٧م.

مقلقة في جميع البلدان. قد يعني التخرج من الجامعة بالنسبة للشباب الخروج من الحياة النظرية والولوج في الحياة العملية، والطلاق من حياة العزوبية للالتصاق بعش الزوجية وبناء أسرة تنعم بالرفاء والبنين. وقد تتلخص أهداف أغلب الشباب وفي هذه المرحلة العمرية، في الحصول على الوظيفة والزواج وتأمين السكن المستقبلي. فهل يبشرهم المستقبل بها أم أن استشرافه يفضي إلى التشاؤم؟.

ذكرت السيدة ثريا أحمد عبيد المديرة التنفيذية لصندوق الأمم المتحدة للسكان بمناسبة اليوم العالمي للسكان في ١١/ ٧/ ٢٠٠٣م أن «نصف سكان كوكبنا البالغ مجموعهم ٦,٣ بلايين نسمة تقل أعمارهم عن ٢٥ سنة ويوجد أكثر من بليون إنسان تتراوح أعمارهم بين ١٠ سنوات و ١٩ سنة بحيث يمثلون أكبر جيل من الشباب في تاريخ البشرية». ويلحظ المتتبع لإحصاءات تعداد السكان في البلدان العربية بروز ارتفاع نسبة الشباب في المجتمعات العربية، فهي تصل بين ٥١٪ - ٦٠٪ في المملكة العربية السعودية، على سبيل المثال، وهموم وطموحات الشباب المستقبلية هي جزء من تبعات الزيادة السكانية في العالم والتي تختص الدول النامية بالحصة الكبرى منها، ففي مصر مولود جديد كل ٢٧ ثانية، وفي المملكة مولود جديد كل ١٩ ثانية، وهي إحصائيات قديمة!. لذا سيكون الشباب، كما أتوقع، هم مدار التركيز والبحث خلال العقدين القادمين عند مراكز الأبحاث والمعنيين بالدراسات الاجتماعية وعلوم الاجتماع السياسي وغيرهم.

إن الطفرة السكانية ستكون مؤشراً ايجابيًّا ورافداً حضاريًّا إذا تم استيعابها بالإحصاءات المستمرة والتخطيط الفاعل للتنمية، وستكون دعماً للاقتصاد الوطني في كل دولة عربية إذا تم احتواؤها وتوجيهها كي تتحول إلى قوة من الممكن استثمارها في النهوض بالبلدان العربية. بينما هذه الطفرة ستكون وبالاً خطيراً وكارثة مستقبلية إذا غابت الحكمة عن دراستها بما تمثله مستقبلاً من استنزاف للموارد والخدمات وبما تفرزه من بطالة وتبعات اجتماعية واقتصادية ونفسية.

لذلك فإن استشراف الأزمات المستقبلية المباشرة وغير المباشرة للزيادة السكانية، ومن ثم تناولها بالبحث والدراسة لمعالجتها، وبالتالي الاستعداد بالتخطيط النظري والبرنامج العملي للحد من شدتها وتفاقمها، والأمثل الإعداد لعبورها من غير أن تمثل أزمة للمجتمعات والدول. وهذا الأمر يحتاج إلى التعاطي معها على طريقتين: الأولى أخذها كوحدة واحدة من الأزمات المستقبلية لما بينهما من تداخل وترابط، والثانية تفكيكها لما لكل أزمة ظواهرها وأسبابها وانعكاساتها الخاصة على المجتمع والدولة.

فالأرقام التي تملأ صفحات التقارير التنموية والإنسانية والإحصاءات المنتشرة في العالم عن الزيادات السكانية دفعت البعض إلى إطلاق جملة «الانفجار السكاني» على ما يحدث وسيحدث فيها، ونكتفي هنا بالإشارة إلى بعض الأرقام المخففة والمعتدلة حول البلدان

العربية والمتوقع أن يكون عدد السكان فيها عام ٢٠٥٠م ٦٥٤ مليون نسمة بينما هي اليوم ٢٨٧ مليون نسمة، وستكون مصر في المقدمة بتعداد السكان وحجمه ١١٣ مليوناً ثم اليمن ١٠٢ مليون ويليها السودان بـ٦٣ مليوناً ثم السعودية بـ٥٩ مليون وفي المركز الخامس العراق بـ٥٣ مليون نسمة. وتتراوح توقعات زيادة سكان العالم في عام ٢٠٥٠ بين ٩ بلايين نسمة إلى ١٤ بليون نسمة ومعظمها في العالم الثالث.

هذه الزيادات السكانية وبقدر ما تُربك الخطط التنموية فتخرجها عن مسارها لمواجهة المشاكل المستجدة، فإنها تبعث على تشاؤم الشباب تجاه مستقبلهم المنظور وبخاصة مع تدني مستوى دخل الفرد سنويًّا وغلاء المعيشة وصعوبتها، ولكن مبعث التفاؤل يكمن في سعي الدول العربية، حاليًّا، وبمشاركة القطاع الخاص، نحو وضع استراتيجيات وطنية متكاملة الأهداف والأبعاد لامتصاص الأزمات المستقبلية. ويضاعف هذا الوضع المسؤولية على الشباب في الاعتماد على أنفسهم أولاً وأخيراً، لبناء ذواتهم والحفر في الصخر لتشكيل مستقبلهم(٣٣).

هناك مشاكل شبابية أخرى، للذكور والإناث، نكتفي بالإشارة إليها مثل:

- مشكلة تقلب المزاج التي تظهر في سلوكات غير متوقعة أو متناقضة، وأحياناً في فترات متقاربة جدًّا.
- مشكلة التقلب في تحديد الشاب للبيئة التي يستقي منها الرأي والقرار، أهي دائرة البيت والأهل، أم دائرة الأصدقاء والأقران، أم هي دائرة المحببين إليه من المدرسين والمدراء. وهذه المشكلة تُثير مشكلة أخرى وهي: ما هي حدود الأخذ والعطاء مع هذه الدوائر من قبل الشاب نفسه؟.
- مشكلة ضعف أو انعدام القراءة والمطالعة، وبالتالي ضعف نضج الحياة وضعف الوعي والثقافة.
- مشكلة حدود تأثير الدين والتدين في حياة الشاب وسلوكه، ومن ثم تأتي مشكلة ضعف الوازع الديني وتبعاتها على نفسه ومحيطه.
- مشاكل الانحرافات المختلفة، وتتدرج من المزالق العاطفية إلى الجنح الجنائية حتى تصل إلى مستوى عمليات الإجرام، وهو ما يلاحظ على الفئة العمرية الشابة التي تحتضنها سجون أغلب الدول.
- الإدمان بكل أنواعه وهي تتدرج في حياة الشباب: إدمان السهر بالليل، إدمان رغبة الشراء بحاجة أو دون حاجة، إدمان متابعة موضة الأزياء والزينة ومواد التجمل، إدمان متابعة المسلسلات، إدمان الإنترنت، إدمان مشاهدة الأفلام الإباحية، إدمان المخدرات...إلخ.

---

(٣٣)من مقال للكاتب في صحيفة عكاظ السعودية في ٨/ ٧/ ٢٠٠٤م.

مسألتان مهمتان: السؤال والتفاعل

مسألتان مهمتان لفهم الشباب بشكل أفضل، ولتصويب حسن التعامل معهم: السؤال والتفاعل. فالسؤال كمفتاح للعلم هو مفتاح للفهم والتفاهم أيضاً. والتفاعل كما هو تعبير عن التفهم للآخر هو كذلك استجابة لحاجاته. يحتاج الشباب إلى هاتين العمليتين من قبل الآخرين ومحيطهم ومجتمعهم. فهم بحاجة إلى من يستمع إلى أسئلتهم العريضة وتساؤلاتهم الكثيرة، فالمرحلة العمرية التي يمرون فيها، وقلة تجاربهم قياساً بالآباء والأجداد، ونسبة وعيهم المحدود، تجعلهم في أمس الحاجة لمن يجيب عن تلك التساؤلات ويزيل بعض الالتباسات عنهم في الفكر والسياسة والاجتماع.. وبالطبع هذه الحالة تستدعي وجود معلمين أكفاء في المدارس، وتستدعي بذل الآباء جهداً متقدماً ووقتاً أكبر للتزود بمهارات الرد على أبنائهم، وإلا لن يجد الشباب من يجيب على تساؤلاتهم مما يدفعهم إما نحو البحث عنها بطرقهم الخاصة وهي خطوة جيدة لو حصلت، أو ارتجال المواقف لغياب التوجيه والمعلومة وهي خطوة قد يكون ثمنها باهظاً. هنا تأتي أهمية مبادرة المتعاملين مع الشباب نحو التجاوب معهم في هذا الإطار. عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «بادروا أحداثكم بالحديث قبل أن يسبقكم إليهم المرجئة»[٣٤].

التفاعل مع الشباب كعملية ثانية ومهمة لتفهمهم والاستجابة لحاجاتهم هي المسألة الضرورية الثانية. عملية التفاعل تتم من طرفين، لا من طرف الشباب فقط كما يطالب به البعض، بل هي مطلوبة وأكثر ضرورة من الطرف الثاني، وهو المحيط الذي يحتك ويتعامل معه الشاب بشكل دائم. التفاعل مع الشباب لا يأتي بفرض الآراء والأفكار والسلوكات عليهم، بل من خلال عملية تفاعلية يصل فيها الشاب إلى مرحلة القناعة الكلية والإيمان الواضح، سلباً أو إيجاباً، بما يتلقاه وينفتح عليه من ثقافات واعتقادات وأعراف ومواضيع عامة. فالأمر يعتمد على إرادة الشاب التي تتقوى من خلال رغبته في الوصول لأي شيء كالنجاح والتفوق علميًّا، أو الالتزام الديني والأخلاقي المتقدمين. يمثل النزوع إلى التساؤل والميل إلى الفاعلية والحركة ميزتين للشباب، فإذا لم نُتح الفرصة لهم كي يطرحوا الأسئلة، فإننا سنضطرهم إلى أن يكونوا متلقين وحسب، وبذلك نكون قد استأصلنا جذر إنسانيتهم الأساسي الذي يتمثل بالتفكير والتعقل[٣٥].

هناك وسائل عديدة لخلق التفاعل مع الشباب، هنا نشير إلى بعضها:

- إشراك الشباب في عملية التفكير الجماعي فيما يرتبط بهم من قرارات، سواءً داخل الأسرة أو في المدرسة، وحتى على مستوى مؤسسات المجتمع المدني التي يعملون أو

(٣٤) وسائل الشيعة: ١٥/ ١٠٦/ ١.

(٣٥) لمزيد من التوسع في هاتين المسألتين، السؤال والتفاعل، يمكن مطالعة كتاب المجتمع المدني: مقاربات في دور المرأة والشباب، للسيد محمد خاتمي الرئيس الإيراني الأسبق.

يتطوعون للعمل فيها.

- الابتعاد عن أسلوب التلقين المباشر والتوجيه المنبري قدر الإمكان في توجيههم ونصحهم وإرشادهم، والاستعاضة عنه بإثارة المواضيع المتعلقة بحياتهم اليومية لمناقشتهم فيها مثل: أوقات الفراغ واستثمارها، مستقبل الشباب...

- إشراك الشباب في طرح وتنويع البدائل في معالجة ما يواجههم من أزمات مع أقرانهم ومشاكل في أسرهم، مهما كانت في نظر الكبار أنها أمور صغيرة.

- إظهار الاهتمام بكل ما يطرحه الشباب من مواضيع واقتراحات ومشاكل، والإنصات الكامل لهم. أي إظهار التفاعل.

- تدريب الشباب ودفعهم، من خلال النقاش المستمر، على كيفية تشخيص ما يواجههم من مشاكل بحيث لا يهونوها أو يضخموها، عبر طرح السؤال تلو السؤال حول المشكلة المطروحة ذاتها، وبالتالي من خلال إجاباتهم يتعلمون على دقة التشخيص، ومن ثم يتعلمون على وضع بدائل العلاج.

- دعم النشاطات الشبابية معنويًّا وماديًّا وفكريًّا من خلال الحضور الفعلي ميدانيًّا وتذليل العقبات التي تواجههم.

- الدخول مع الشباب، عبر إظهار التعاطف مع همومهم النفسية، لأن للحب مكانة وتأثيراً في أنفسهم، الدخول في عملية تحديد الأولويات التي ينبغي على الإنسان وضعها كقواعد لمجمل حياته الأسرية والتعليمية والعملية، كقاعدة المحافظة على التدين ثم الأخلاق، ثم قاعدة المحافظة على القيم الأساسية كقيمة الأسرة وقيمة التعليم، ثم قاعدة المثل الاجتماعية الأساسية...

- مشاركة الشباب، عبر التشويق المشترك للتفاعل المباشر، وهو أمر يعتمد على طبيعة الثقافة التراكمية التي يختزنها كل شاب، التشويق للإبداع في المجالات المحببة لديهم. في الفكر والفن والثقافة والرياضة والتقنية، وتشجيعهم على اختيار القدوة الحسنة في المجال ذاته الذي قد يبدعون فيه، بل دفعهم ليكونوا نجوماً في تلك المجالات.

مَنْ يرعى طموحات الشباب؟

ليس غريباً أن يتباكى الشعراء قديماً وحديثاً على مرحلة الشباب، لأنها من ألذ مراحل عمر الإنسان من حيث الإقبال على الحياة والاندفاع نحو المستقبل وأحلام اليقظة اللا محدودة وعنفوان القوة والصحة والشعور بالرجولة الكاملة. فهي مرحلة يأتي الشاب فيها منتقلاً من مرحلة الأخذ الدائم من الطفولة حتى الصبا، فيصل إليها مقبلاً على العطاء والعمل ونشوة الإنجاز ترافقه في كل خطوة لشعوره بهذه النقلة الحساسة من حياته. يقول علماء الاجتماع عن مرحلة المراهقة والدخول في مرحلة الشباب: «وتتميز هذه المرحلة بأنها

مرحلة انتقالية إلى الرجولة أو الأمومة. ويتخطى الأفراد فيها مرحلة التوجيه والرعاية ويكونون أكثر تحرراً، ولهذا تحتاج هذه المرحلة إلى عناية خاصة»[٣٦].

مهمات لإدارة وتنمية الشباب

من المشاكل الحقيقية التي تواجه الأمم والدول والمجتمعات مسألة إدارة وتنمية الشباب. وهي من الخطورة بمكان بحيث لا تأتي معالجتها بشكل ارتجالي. العقول التي تخطط للشباب ينبغي قبل كل شيء أن تتوازن في نظرتها إليهم، فإزالة النظرة السلبية تجاههم هي الخطوة الأولى للنجاح في إدارتهم وتنميتهم. الخطوة الثانية التعامل معهم كشريحة اجتماعية لها إمكاناتها وظروفها السلبية والإيجابية. أما الثالثة فتحديد نقاط ضعفها وقوتها لتدارك الأولى وتعزيز واستثمار الثانية. وفي الرابعة تحديد مسارات تنميتها عبر صياغة المخرجات المطلوبة منها.

إزالة النظرة السلبية للشباب

يعاني الشباب في أغلب المجتمعات من النظرة السلبية لهم من قبل محيطهم، أو من قبل رجال الدين، أو من قبل الناس الذين يكبرونهم سناً، أو من قبل معلميهم ورؤسائهم. بالطبع لم تأت هذه النظرة من فراغ، بل لها مبرراتها وأسبابها، ولكن تراكمها وانتشارها بحيث تصبح نظرة عامة عنهم، والتعبير عنها بصور مختلفة، لا شك بأنها عملية تؤذي الشباب وتُنفرهم، وبالتالي تزداد فجوة التباعد بينهم وبين محيطهم، ومن ثم يصعب فهمهم والتفاهم معهم.

تعتمد النظرة السلبية للشباب على أنهم جيل أقرب للميوعة، لا للرجولة. وأنهم فئة لا تبحث إلا عن اللهو والملذات والشهوات والدوران في الشوارع والأزقة، وأنهم شباب صياعة ولا ينفعون إلا لـ«الرياضة والكورة»، ميالون للموضة والأزياء والزينة والتزين لا للجدة والاجتهاد. ولدى أصحاب هذه النظرة شواهد وقصص عنهم، ويستشهدون بما تفرزه تلك الحالة من أعمال جنائية وإجرامية جعلت السجون مليئة بالشباب والشابات.

إذا ما تحكمت هذه النظرة بعقول المعنيين بالشباب والمخططين لحاضرهم ومستقبلهم، فإن نتائجها وخيمة جدًّا. ما نعنيه بالمعنيين والمخططين هم أولئك الناس الذين يتصدون للتعامل مع الشباب والشابات، سواءً كانوا من الناشطين الاجتماعيين، أو المبادرين للأعمال التطوعية، أو المؤسسين والمديرين لمؤسسات المجتمع المدني، أو من رجال الدين والمفكرين، أو كانوا من الجهات الرسمية في الدول كوزارات التخطيط والتنمية والمؤسسات الرياضية... إذا ما تحكمت النظرة السلبية بهؤلاء فإنهم سينظرون للشباب بعين تطل عليهم من

(٣٦)معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية: ٤٥٢.

نظارة سوداء لا ترى منهم إلا الجانب الأسود. عندها، ستعمل عقولهم وفق منظور أمني وإرشادي لحمايتهم ولحماية الناس منهم، ومن جانب أخر سينصب جهد التخطيط لهم على المحافظة عليهم أكثر من التخطيط لتنميتهم واستثمارهم. بهذا تكون الخطط عاجزة عن تفهمهم والتفاهم معهم أو عن تنميتهم واستثمارهم، والحصيلة قد تكون خسارتهم كرأسمال أساس للمجتمعات والأمم.

شريحة لها إمكانات وظروف سلبية وإيجابية

لذا فإن الخطوة الأولى للنجاح في إدارة الشباب وتنميتهم هي إزالة النظرة السلبية عنهم من عقول الجميع لا سيما المعنيين والمخططين للشباب، والانتقال إلى النظرة المتوازنة والموضوعية تجاههم. على ضوء ذلك تأتي الخطوة التالية وهي التعامل معهم كشريحة اجتماعية لها إمكاناتها وظروفها السلبية والإيجابية. هم شريحة اجتماعية واسعة، فيها الصالحون والطالحون، فيها المجتهدون والتنابلة، فيها الناجحون والفاشلون، فيها المبدعون والساقطون، فيها المثقفون والبسطاء، فيها الأغنياء والفقراء، فيها المتدينون والمنحرفون، ولكنهم جميعاً يشتركون في كونهم يرفضون الرتابة والروتين والتقليدية في الحياة، ويميلون إلى التجديد وينفرون من النمطية، ويسعون وراء اللذة والمتعة والاهتمام بالأناقة والولع بالمغامرة والتمرد على كل أنواع السلطة.

فقد يكون الطريق لفهم إمكانات الشباب، وفهم ظروفهم السلبية والإيجابية كشريحة اجتماعية واسعة، يمر عبر تحديد طبيعة مجتمعهم وبلدهم الذي يعيشون فيه؛ لأن الاختلاف في طرائق حياتهم ودرجات سلوكهم ومستويات تفكيرهم بين الانفتاح والانغلاق، وبين الانفلات والتزمت، وبين المثالية والواقعية، وبين الجدية والهزل، وبين ترف العيش وضنكه، وبين صرامة الحياة وبساطتها، جميعها تساهم في صياغة شخصيات الشباب كولادة طبيعية لماهية المجتمع ومستوى الدولة التي يعيشون فيها. ولتقريب الصورة يمكننا البحث والمقارنة بين واقع وحال الشباب الكويتي والسعودي والإماراتي والقطري مع واقع وحال الشباب في لبنان وسوريا وتونس ومصر والسودان وإيران. لا نعني هنا التفضيل والتفاضل فيما بينهم، وإنما نقصد أن فهم واقع الشباب يمر من بوابة فهم المجتمع والبلاد التي يعيشون فيها.

في اعتقادي أن لدى الشباب في العالم العربي والإسلامي إمكانات متنوعة لم تساعد ظروفهم وواقع بلدانهم ومجتمعاتهم على اكتشافها وتنشيطها وتفعيلها أو إتاحة الفرصة لبروزها، وبالتالي لم تتم تنميتها واستثمارها. بينما يشاهد الزائر للبلدان الغربية في أمريكا وأوربا، وكذلك في اليابان والصين، كيف نجح شبابنا في اقتحام الحياة العلمية والاقتصادية والإعلامية والسياسية والنجاح فيها والبروز والتدرج في الوصول للمناصب العليا في تلك

البلدان. الشواهد كثيرة جدًّا، بل لدى كل واحد منا أمثلة على ذلك. في زيارة لي للولايات المتحدة الأمريكية قبل عقد من الزمان، وفي مقابلة مع شركة أمريكية تعمل في مجال البرمجة الإلكترونية في هيوستن، يملكها ويديرها أمريكيان، قابلت ثلاثة من الشباب، أحدهم من الأردن، والثاني من فلسطين، والثالث من الهند، هؤلاء الثلاثة هم المبرمجون لأكبر برنامج معني بالرقابة والتحقق لمعامل النفط الكبيرة، ويباع هذا البرنامج ويصان سنويًّا بالمئات من الملايين لأكبر معامل نفط في العالم العربي. كذلك وجدت حال شبابنا في شركات عالمية كبيرة كمايكروسوفت على سبيل المثال. ووجدت بعض شباب أمتنا يعملون بإخلاص وتفانٍ في شركة صناعة الطيارات المشهورة «الإيرباص» في فرنسا.

الفارق بين إنتاجية شباب أمتنا عندما يعيشون في بلداننا أو يعيشون في تلك الدول لا يكمن في فوارق بين شخصياتهم هنا أو هناك. الشباب هم الشباب ذاتهم أبناء هذه الأمة وثقافتها وأصولها وتقاليدها، ولكن الفوارق تكمن في البيئة الحاضنة لهم، وفي وجود الفرص المتساوية والمتاحة أمامهم، وفي مستوى مُدخلات التعليم الذي يتلقوه ليجعل منهم ما هم عليه اليوم من مُخرجات عاملة ومنتجة، وفي تقديرهم واحترام ما لديهم من كفاءة وطاقة. في هذه الفوارق تكمن أسباب هجرة كفاءات وعقول شبابنا للخارج. من خلال هذه الفوارق يمكننا الاقتراب من فهم وتفهُّم أوضاع شباب أمتنا. السلبيات والإيجابيات التي يعيشون في ظلها، ويظلون تحت وطأتها. فهمها وتفهُّمها هي الخطوة الثانية للمعنيين بالشباب والمخططين لمستقبلهم.

تحديد نقاط الضعف والقوة

أما الخطوة الثالثة فهي تحديد نقاط ضعف شريحة الشباب وقوتها، لتشخيص ومعالجة وتدارك الأولى، أي نقاط الضعف، ولتقوية وتنشيط وتعزيز واستثمار الثانية، أي نقاط القوة؛ لأن الشباب هم مخزون الطاقة للمجتمعات والدول وعليهم المعول لبناء حاضرها ومستقبلها.

قال الإمام الصادق عليه السلام للأحول:

- أتيت البصرة؟
- قال: نعم.
- قال: كيف رأيت مسارعة الناس في هذا الأمر ودخولهم فيه؟
- فقال: والله إنهم لقليل، وقد فعلوا وإن ذلك لقليل.
- فقال: عليك بالأحداث، فإنهم أسرع إلى كل خير[٣٧].

من مهام المعنيين بالشباب والمخططين لهم معرفة طموحاتهم وحاجاتهم. نعم، قد

(٣٧) ميزان الحكمة: ٥/ ١٨٥٦ ح٩٠٨٢.

يغيب عن الشباب، أو يصعب عليهم أحياناً، التفكيك والفصل بين الآمال والطموحات الواقعية عن تلك الأحلام والتمنيات غير الواقعية، لأنهم يعتقدون بأن كل أفكارهم ومطالبهم ومتطلباتهم واقعية وقابلة للتحقق. السبب في ذلك قلة تجاربهم الحياتية، وضعف اطلاعهم على تجارب من سبقهم. نعم إنها نقطة ضعف عندهم، ولكنها في المقابل تستبطن نقطة قوة، وهي الحماس والاندفاع الذي يجعلهم حالمين أكثر من كونهم واقعيين، وإذا آمنوا واقتنعوا بفكرة ما قد يبذلون أنفسهم من أجل تحقيقها. فبمقدار ما هي نقطة ضعف هي في الوقت ذاته نقطة قوة.

نعم، قد يصعب على الشباب أحياناً تقبُّل العادات والتقاليد السائدة، أو مجارات الأعراف الاجتماعية المتبعة، أو الالتزام بثقافة وسلوكات محيطهم؛ لأنهم يظنون بأنهم جيل مختلف عن جيل الآباء والأمهات وغير ملزمين بما ألزم الآخرون به أنفسهم. السبب من وراء ذلك غياب ثقافة التمييز عندهم بين ما ينبغي التشبث به من قيم وبين ما ينبغي تجاوزه من مفاهيم مغلوطة. لا شك في أن ذلك يمثل نقطة ضعف عندهم؛ لأنهم سيصطدمون بالمجتمع في كل يوم وكل ساعة؛ لاختلاف مسلكهم وتصرفاتهم عن السائد في المجتمع. بيد أن نقطة الضعف هذه تستبطن نقطة قوة كامنة، وهي رغبتهم الشديدة في التجديد وكسر رتابة الحياة وتجاوز البيروقراطية الاجتماعية القاتلة للإبداع، ولذا نجدهم كالطيور الباحثة عن الانطلاق في آفاق الله الواسعة.

نعم، قد يصعب على الشباب أحياناً تقبل القيود الأسرية والاجتماعية، التي في مجملها تجعلهم تحت رقابة الآخرين، سواءً في البيت أو في المدرسة أو في الجامعة أو في الحارة أو في الشارع، وعليه، تنتج مجموعة من المشاكل اليومية معهم بسبب رفضهم للرقابة الدائمة عليهم ومنعهم من سلوك هذا المسلك أو ذاك؛ لأنهم يعتقدون بأنهم باتوا رجالاً ينبغي إعطاؤهم الثقة، ويمكنهم الاعتماد على أنفسهم في تحديد السلوك الصائب وتمييزه من السلوك الخاطئ. هذه الحالة لا شك في أنها تشكل نقطة ضعف عندهم، إلا أنها تتضمن نقطة قوة كامنة لديهم، وهي الحجم الكبير من الثقة بالنفس عندهم، والتي يحتاجها المرء لخوض غمار أمواج الحياة وصعوباتها. وهنا، مقابل نقطة الضعف هذه، نجدها تستبطن أيضاً نقطة قوة أخرى وهي مطالبتهم بالحرية والتحرر والسباحة في رحاب الله الفسيحة.

مثل تلك الصور من نقاط الضعف والقوة ما يمكن استخلاصه من تجربة الشباب في الفترة الماضية في خضم حراك الشباب في الثورات العربية. بينما ساد الاعتقاد، قبل انطلاق هذا الحراك، بأن الشعوب العربية خاضعة للواقع السياسي المتخلف، ومستسلمة للواقع الاقتصادي المزري، وخانعة للنظم الديكتاتورية القائمة، ومنهزمة أمام التكتلات الدولية، مما يعني وجود نقطة ضعف كبيرة في الواقع العربي والإسلامي تتمثل في غياب، إن لم

نقل انعدام، الثقة بالنفس، واليأس المطبق من تغيير الواقع المرير. بيد أن الشباب بحراكهم اليومي من تونس في المغرب العربي حتى البحرين على ضفاف الخليج العربي مروراً باليمن المتمدد على بحر العرب، استطاعوا أن يبدلوا ذاك الضعف إلى قوة عابرة للحواجز وقادرة على تبديل الخوف العام إلى شجاعة فارضة للتغيير.

نعم، هناك نقاط ضعف عند شريحة الشباب، ولكن مقابلها عندهم نقاط قوة. السبيل الأنجع لمعالجة مكامن ضعفها وتنمية واستثمار محاور قوتها هو دراستها لا الارتجال في تنقيطها، وتحديدها بالاستبيانات الكثيفة لا بالتحليل النظري في توصيفها، وهو ما يحتاج إلى تبنٍّ من جهات متخصصة في كل بلد عربي. بعد ذلك، الدراسة والتحديد، يمكننا، تحليل واستقراء النتائج للانطلاق في رسم خطة تنموية للشباب واستثمارهم الاستثمار الأمثل المبني على قاعدة «الإنسان هو عنصر التنمية الأول».

تحديد مسارات تنمية الشباب والمخرجات المطلوبة

أما الخطوة الأخيرة في مواجهة الأمم والدول والمجتمعات مسألة إدارة وتنمية الشباب، فتتمركز في تحديد مسارات تنمية الشباب عبر صياغة المخرجات المطلوبة منها، ولكن تحديدها يتطلب الإجابة عن سؤال كبير: مَنْ الشباب، وما الشباب، الذين تحتاجهم الأمة للمستقبل، على المدى المتوسط وعلى المدى البعيد؟ هل هم صناعيون، تقنيون، فنيون، أكاديميون، تكنوقراطيون، إسلاميون، ليبراليون، سياسيون، اقتصاديون، باحثون، إداريون، دبلوماسيون، ثوريون، قانونيون، عسكريون، مفكرون، أطباء، كتاب، أدباء...

تحديد تلك المسارات يأتي من خلال تدفق كم من المعلومات والتقارير القادمة من أعمال ونشاطات كافة قطاعات المجتمع الأهلية والخاصة والرسمية، التي بمجموعها تتراكم وفق أنظمة وبرامج للفرز والتحليل لتحدد خلاصات المخرجات السابقة، ومن ثم تتبين مراكز النواقص ومحاور العجز المطلوب سدها للفترة القادمة، المتوسطة والبعيدة. الأشكال الخطير الذي تعاني منه أغلب الدول هو غياب أو ضعف برنامجين: برنامج تدفق المعلومات وسلاسته وضبطه، وحسن اختيار برنامج فرز المعلومات وتحليلها بما يتوافق مع الرؤية التنموية للدولة. نقصد بمفردة «البرنامج» الجانين الجانب التقني والتكنولوجي، والجانب البشري المناسب للتقني.

بيد أن الأهم من تلك العملية وجود رؤية شاملة وواضحة عند المعنيين بالشباب والمخططين حول إدارة كافة المجتمع والدولة، بحيث تصبح رؤية إدارة الشباب وتنميتهم منبثقة عنها لا منفصلة بمفردها، وبحيث تكون دورة التكامل في مجموع الخطط وفق تلك الرؤية الشاملة لإدارة جميع شرائح المجتمع وفئاته. أما الحديث عن رؤية الدولة العامة فليس مكانه هنا.

لا غنى، كما يقول علماء الإدارة، عن وجود جهة رقابية تراقب عبر معايير متعددة، ومن خلال برامج رقابية، مدى وصول خطة إدارة وتنمية الشباب لأهدافها. هذه الجهة غير معنية بتفاصيل التطبيق، هي معنية بالنتائج حول الوصول للأهداف أو عدم الوصول، وهو الأمر الذي يتراوح بين الغياب الكلي والضعف الشديد في الكثير من خططنا في العالمين العربي والإسلامي.

كيف تتعامل الأمة مع الشباب؟

لا يكفي الأمة معرفة مشاكل وهموم ولغة ومتطلبات الشباب لفهمهم، وبالتالي التفاهم معهم؛ لأن تلك خطوة تمثل نصف الطريق، والنصف الآخر يتمحور في كيفية التعامل معهم، وهو أمر، بالإضافة إلى ما جاء في الصفحات السابقة، يتمحور في محورين، وهما:

الأول: أسس وقواعد التعامل معهم.

والثاني: المسارات والجهات التي تتعامل معهم.

أسس وقواعد التعامل مع الشباب:

اختيار قاعدة ما للتعامل مع الشباب، بالإضافة لأهميتها، فهي عملية خطيرة؛ لأن نتائجها وإفرازاتها متعددة الأبعاد على الصعيد الفكري والروحي والنفسي والحياتي والمستقبلي والمادي للشاب والشابة. فكل قاعدة سيتبعها سلوك يضبط إيقاع التعامل معهم، ولغة تحدد مسالك التواصل معهم، بل كل قاعدة يبتعها برنامج عمل كامل للتفاهم معهم وإدارة شؤونهم. لذا ينبغي إعطاء مسألة اختيار هذه القاعدة أو تلك أهمية قصوى كي ينجح المعنيون بالتعامل معهم في الوصول للأهداف المرجوة من ذلك. وهنا نتطرق لبعض من تلك القواعد:

- الخطاب المتبع مع الشباب، أهو خطاب تلقيني أم خطاب تبادلي، أهو خطاب ديني أم خطاب ثقافي، أهو خطاب تعليمي أم خطاب تربوي تعليمي، أهو خطاب قيمي أم خطاب معلوماتي فقط، أهو خطاب روحي أم خطاب مادي؟
- منهج تعاملهم مع الشؤون الحياتية، هل ينبني على النظرة المادية للحياة أم على المنهج المعنوي، هل ينبني على الارتجال في مواجهة المشاكل اليومية في معترك الحياة أم على التدريب المستمر للتشخيص والمعالجة؟
- السلوك المتبع كردة فعل تجاه تصرفاتهم. بالغضب والتوتر والعقاب المباشر، أم بالهدوء والحوار والاحتواء للمعالجة؟
- سلم الأولويات في حياتهم، هل مصدره الأهداف الحياتية كالشهادة والوظيفة والزواج والمنزل، أم مصدره الدين والقيم والأخلاق والعلم، أم هو جمع بين أمرين؟

- منهج التعويد على النظر للمستقبل، أيقوم على التشاؤم واليأس من سوداوية الحال القائم دائماً والاستسلام للواقع، أم على التفاؤل والأمل بالثقة بالنفس وتطوير إمكانات الذات؟ أيقوم على مزمار التغني بأمجاد الماضي، أم على مزمار التغني المفرح ببناء الذات والاعتماد عليها؟
- منهج التعاطي تجاه إجادتهم ونجاحاتهم. بعدم الاكتراث والتهوين والاكتفاء بالمكافأة المادية، أم بمشاركتهم فرحهم والتشجيع والجمع بين المكافأة المادية والمعنوية؟
- منهج التعاطي تجاه أخطائهم وفشلهم. بالاستهزاء والسب وغليظ القول، أم...
- منهج التعاطي مع أفكارهم ومبادراتهم وأحلامهم. بالرفض والتثبيط والتسخيف، أم بالقبول والنقاش والتعديل والتطوير.

المسارات والجهات التي تتعامل مع الشباب:

الشباب جزء من المجتمع والأمة. الكل يتعامل معهم. بيد أننا سنحاول، هنا، تقسيم الحديث على ثلاث مسارات:

الأول: مسار المحيط الاجتماعي الذي يعيشه الشباب، الأسرة والمدرسة والحارة والمجتمع العام.

الثاني: المسار الأهلي بما فيه الحركات والأحزاب ومؤسسات المجتمع المدني.

الثالث: مسار الدول والحكومات التي يعيش الشباب ويتنفس في ظل أنظمتها وقوانينها ودستورها ووزاراتها.

المسار الأسري والاجتماعي:

هو مسار كتب وتحدث عنه الكثيرون، ولا يزالون، من الأطياف الفكرية المختلفة لاسيما كتابة وحديث المتدينين عنه. فقد أشبعوه درساً وبحثاً وخطابة فلا حاجة أو مسوغ لتكرار ما تناولوه بالنفس والمعاني والمطالب والمؤديات ذاتها. كالحديث عن أهمية الصداقة والشللية وتأثيرهما في الشباب. الحب والعواطف. الشاب بين الأسرة والمدرسة. الشباب بين التقييد والحرية... إلخ. الدين والعقيدة والشباب. لذا سنكتفي في هذا المسار بالتطرق لبعض الأفكار المختصرة التي ربما تذكّر بالنواقص أو تنبّه إلى ملاحظة ما أو تطرح اقتراحاً ما أو تؤكد على ملاحظات قديمة حديثة:

لا يزعم أحد بوجود رضا عام حول كيفية تعامل الأسر والمحيط الاجتماعي مع الشباب. كذلك لا يدَّعي أحد النجاح العام في تعامل الجميع معهم، لكن يوجد حالة شبه عامة بعدم الرضا عنها. من جهة أخرى، وكما أشرنا في صفحات سابقة، لدينا حالة من الطرف الآخر، وهم المتعاملون مع الشباب، الذين يجدون صعوبات في فهم وتفهم الشباب

وفي التعامل معهم. يُنبئنا ذلك بأهمية التوصل لقناعة علمية عن الموضوع، فلا إطلاق الأحكام عليها أمر مرضي عنه سواء بالفشل أو النجاح أو الرضا، ولا التوقف عن الحكم أمر مرضي عنه.

يوجد نقص معلوماتي في معرفة نظرة الشباب لكيفية تعامل محيطهم معهم. منشؤه غياب الدراسات الميدانية، النفسية والأسرية والاجتماعية. يعود النقص لقلة مراكز الدراسات والأبحاث المهتمة بهذا الشأن. نعم، توجد بعض المراكز في مصر والمغرب ولبنان وغيرها، لكنها منشغلة بالأبحاث الاقتصادية والسياسية، وقليل منها مهتم بالشأن الاجتماعي كالمركز القومي المصري، وهو مركز معني بالمجتمع المصري، بينما حاجة الأمة ومجتمعاتها المتعددة بحاجة إلى دراسات ومراكز في كل بلد منها.

من جانب آخر، مهما عملنا على بث القيم والأفكار حول حسن واحترام التعامل مع الشباب، ومهما نشرنا من كتب حولها، ومهما صدحت المنابر عنها، فإننا بحاجة إلى ابتداع مناشط جديدة تساهم في إعادة إنعاش الجميع حول قيم التعامل مع الشباب وحقوقهم علينا، على سبيل المثال: إقامة ورش عمل دورية ومختلفة للآباء والأمهات والمعلمين في المدارس والجامعات حول أوضاع الشباب وحقوقهم، والتعرُّف على همومهم ومشاكلهم، ولإدراك الخارطة الذهنية والنفسية والعاطفية عندهم. الكتاب والمنبر وغيرهما كوسائل تقليدية لا تُغني عن تنشيط الوسائل والتقنيات الحديثة وهي محببة لدى الشباب مع تطوير آلياتنا السابقة؛ لأن الخشية تكمن في عجز وسائلنا الحالية عن الوصول إليهم، فتموت وسائلنا ولا نحسن التواصل معهم بوسائلهم.

أما على صعيد الحارة الاجتماعية التي تجمعهم فنحن بحاجة إلى التفكير الجاد في الاستفادة منها لتكون عاملاً مساعداً لهم على الإنجاز والنمو والتطور، فلا نتعامل مع صداقاتهم في الحارة الصغيرة أو الكبيرة من منظار المحافظة عليهم وحمايتهم من شرورها فقط، وهي الطريقة المتبعة عند أغلب الأسر والمجتمعات. فإذا أحسنا في طرح المقترحات البديلة التي تجمعهم ولا تفرقهم، والتي تُنشطهم في فعاليات تخدمهم وتخدم مجتمعهم في آن واحد، لا سيما إذا كانت تتماشى مع ميولهم وهواياتهم.

مسار مؤسسات المجتمع المدني وتنظيماته:

محاولة انتقال مجتمعاتنا من مجتمعات كلاسيكية إلى مجتمعات مدنية هي محاولة تطويرية للمجتمع بصورة أو أخرى، لكنها محاولة لا تزال في بداياتها، وكون الشباب هم الشريحة الأكبر من المجتمع، فإن هذه المحاولة، كي يُكتب لها النجاح، ينبغي أن تركز مؤسسات المجتمع المدني عليهم، لأنهم الرافد الأساس لأفرادها والعاملين فيها. من جهة ثانية: عليها أن تركز، لا على النشاطات العامة للمجتمع فحسب، وهي بلا شك مهمة، بل

تركز على المناشط ذات الصلة باهتماماتهم ومشاكلهم وتطلعاتهم وطموحاتهم. ثالثاً: عدم التعامل معهم كعمال وموظفين بقدر ما تتيح لهم الفرصة للمشاركة الإدارية في التخطيط وإعادة التخطيط، وفي التنفيذ والمراجعة والتقييم. ورابعاً: تشجيعهم على توليد الأفكار وترجمتها عبر تحويلها إلى أعمال مؤسساتية على الأرض.

هناك غياب واضح للحواضن المؤسساتية، التي تعمل على تجميع شباب الأمة وتُنمِّي قدراتهم وتطور مواهبهم. شباب الأمة لديهم قابليات ومواهب تتساوى مع ما لدى شباب العالم الذين عندما أُتيحت لهم الفرصة أصبحوا نجوماً في الميادين المختلفة للحياة كالرياضة والفن والعلوم والتقنية والكتابة والهندسة والطب... شباب أمتنا ذخائر عظيمة، وأكبر شاهد على ذلك ما نشاهده اليوم، عندما انفجرت هذه الذخائر فشكَّلت لوحة إبداعية أُطلق عليها ما بات يعرف بـ«ربيع الثورات العربية».

من جهة أخرى هناك عجز شاخص عند أغلب الحركات الدينية والسياسية والاجتماعية والعلمانية والتنويرية في مستوى وحجم قدراتها على استقطاب واحتواء الشباب في المجتمعات العربية والإسلامية، وهو عجز ناتج عن أسباب عديدة، منها: قلة الكوادر في هذه الحركات أو ضعف في كفاءتها، وعن تحول بعض الحركات إلى تجمعات نخبوية فيضعف معها عمقها الاجتماعي، وعن بيروقراطية بعضها مما جعلها تقليدية في طرحها وفاعليتها، وعن عقم عند بعضها في توليد أفكار مشاريع عملية تُنمِّي الشباب وتستثمر طاقاتهم فيها. وعليه تصبح هذه الحركات، إن لم تكن بعيدة عن التعامل مع الشباب، فهي قليلة الاهتمام بشؤونهم. ونتج عن هذا الوضع ضعف في التواصل مع الشباب وابتعاد الشباب عنها.

لذا ينبغي على التنظيمات والحركات القائمة في بلداننا أن تُعيد النظر في سياساتها ومناهجها ووسائلها، وإلَّا ستجد نفسها:

أولاً: خارج سياق منظومة الشباب الاجتماعية وحراكهم السياسي، ويلاحظ ذلك في تجربة الأشهر الستة الماضية، حيث وجدت هذه الحركات نفسها بعيدة عن تقرير مسار الحراك الشبابي، وإن حاول البعض استثمار ذاك الحراك.

ثانياً: قد ينجح الشباب في صنع تكتلاتهم السياسية لتجاوز ما قد تُشكِّله أو تطرحه تلك الحركات من مبادرات ومشاريع، قد يقرؤها الشباب غير مناسبة لتطلعاتهم أو تصطدم مع سقف طموحاتهم، أو ربما يجدونها تخدم بقاء الأنظمة والحكومات التي يراها الشباب سبباً لاستمرار الفساد، بينما يرى الشباب أن إصلاح الأمة يمر عبر تغيير تلك الأنظمة.

المسار الحكومي:

لدى الحكومات والدول الحواضن الأكبر للشباب والشابات. فمجال التعليم، الأولي من المرحلة الابتدائية حتى المرحلة الثانوية، وكذلك التعليم العالي في الجامعات والكليات

المتنوعة والمعاهد الفنية والتقنية، جميعها تُعد الحواضن الأكبر للشباب. ناهيك عن الهيئات والمؤسسات الرياضية وما تحتضنه من أعداد هائلة من الشباب. أربعة أطراف تشترك في رسم معادلة التعامل القائم بين هذه الحواضن والشباب. سياسة الدولة وقوانينها، الإدارات التنفيذية في هذه الحواضن ولوائحها الداخلية، الشباب أنفسهم وأهدافهم الدافعة لتواجدهم فيها، وأخيراً نظرة المجتمع بما فيه الإعلام تجاه هذه الحواضن.

هي أطراف متداخلة في علاقتها بتلك الحواضن أحياناً، وأخرى هي منفصلة بذاتها عنها، لكن تشترك مجتمعة في إفشال أو إنجاح التعامل مع الشباب. الشاب في هذه الحاضنة أو تلك لديه هدف تعليمي أو خلافه، لكنه يكون أمام طريقين، إما أن تُحسن هذه الحاضنة التعامل معه فيحقق هدفه منها ويبني على ذلك تحقيق أهداف أخرى، أو أنه يعتبرها مجرد جسر لتحقيق هدفه الأولي دون ربطه بأهدافه المستقبلية. مشكلة هذه الحواضن تساعد الشباب على الانحباس في الاتجاه الثاني، وقليل منها يتحول إلى بوابة حقيقية للمستقبل. من جهة أخرى يساعد الإعلام الحالي ونظرة المجتمع على تكريس حالة التوقف عند ما تحققه هذه الحواضن من أهداف آنية للشباب.

وزارة للشباب

حيث إن نصف سكاننا، كما هو في معظم البلدان، تقل أعمارهم عن عشرين سنة، بالتالي سترشح عن هذه الشريحة الشبابية الآخذة في الاتساع مجموعة كبيرة من الظواهر الاجتماعية الجديدة، السلبية والايجابية. والظواهر الاجتماعية هي: نماذج من العمل والتفكير والإحساس تسود مجتمعاً ما فيتكيف الأفراد نفسيًّا معها أو مجبرين على اتِّباعها في سلوكهم أو عملهم أو تفكيرهم[٣٨].

مما يعني أننا مقبلون على كم كبير من المشاكل الشبابية. لذا نحن بحاجة ماسة إلى تهيئة أنفسنا، كأفراد ومؤسسات ودولة، لاستقبال تلك الظواهر والاستعداد العلمي والعملي للتعامل معها. بالطبع هذا لا يأتي بالجهود الفردية والمؤسسات الصغيرة فحسب، بل هي عملية بحاجة إلى إمكانات الدولة في كل بلد لمواجهة هذه الحالة والتكيُّف مع إفرازاتها.

وحيث إن الوقاية خير من العلاج، نجد أن من الاقتراحات المناسبة الدعوة إلى إنشاء وزارة للشباب في كل دولة، تكون من مهامها الأساسية:

- دراسة أوضاع الشباب بشكل دوري ومستمر.
- دراسة الظواهر المرافقة لانفتاحهم وحياتهم اليومية.
- تحديد مشاكلهم الرئيسية التي تمثل معاناة لهم.
- تحديد احتياجاتهم في كل فترة.

(٣٨) معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية: ٣٩٢.

- وضع الإصبع على العوامل السلبية والإيجابية في تكوين شخصياتهم.
- استكشاف ميول وطاقات الشباب ومن ثم توجيه من يلزم لتعديلها أو تعزيزها وتطويرها.
- يتعاون جهاز هذه الوزارة ويتداخل مع جميع الجهات والوزارات والمؤسسات ذات العلاقة بالشباب (من الجنسين) فيما يخدم أهدافها ويُفعِّل خططها، حتى لو بلغ هذا الترابط والتداخل بحيث يكون في كل مدرسة عنصران من هذه الوزارة يقومان بمهماتها، حتى يُصبح لكل مواطن اهتمام خاص باكتشاف طاقاته وميوله وتفعيلهما(٣٩).

نعم، يوجد في بعض بلداننا جهات أو مؤسسات باسم الشباب، وفي بعضها وزارة معنية بالشباب، ولكن ما يُشكل به عليها، هو قيامها بأدوار تقليدية صرفة، بعيداً عمَّا ننشده من فكرتنا، وبعيداً عن حاجات شباب الأمة الحقيقية، بل أغلبها مرتبط بجانب النشاطات الرياضية المتنوعة والكروية. هذا الاهتمام مطلوب ويعالج مناحي مهمة في حياة الشباب، إلا أن شبابنا بحاجة إلى وزارة تُعنى بشؤونهم في صورة أشمل وأكمل كما أسلفنا في مهمات هذه الوزارة. فجملة «رعاية الشباب» تعني: الجهود التي تهدف إلى مساعدة الشباب على أن يجتازوا مراحل النمو بنجاح، وحتى يكتسبوا قدرات ومهارات واتجاهات تساعدهم على أن يكونوا مواطنين صالحين(٤٠).

لذا فإن شباب أمتنا بحاجة إلى وزارة تتبنى فكرة ونظام «الرعاية الشاملة» للشباب والشابات. بمعنى الرعاية الفكرية والعلمية والثقافية والنفسية والأخلاقية والرياضية والفنية والتقنية... إلخ، بحيث تكون هذه الرعاية متكاملة مع ما أنتجته الجهات المختلفة السابقة لوصول الشباب لمرحلتهم العمرية الحالية، منذ رياض الأطفال ومروراً بالصبا وبالمراحل التعليمية المتتالية حتى حاضرهم. هي رعاية متقدمة على ما هو سائد في أغلب بلدان العالم. وهي رعاية تراعي الانفتاح على الثقافات المختلفة التي بقدر ما هي إيجابية ولها مردودات رائعة، إلا أنها تتضمن مخاطر لا يمكن تجنبها إلا برفع منسوب الإيمان الفردي بزخم روحي متكرر بين آنٍ وآخر □

(٣٩) من مقال للكاتب نشر في صحيفة عكاظ السعودية في ٩/ ١٢/ ٢٠٠٤م.

(٤٠) معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية: ٤٥٢.